

بين ساكنين، كما قالوا: أصيم ومديق، فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين.

فَأَنْ قُلْتَ: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ **قُلْتَ:** هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي بمقولة.

رَزَّكَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾.

و **«التوراة والإنجيل»** اسمان اعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل، ووزنهما بتفعلة وأفعيل إنما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة؛ لأن أفعيل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب.

فَأَنْ قُلْتَ: لم قيل: نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل⁽²⁾؟ **قُلْتَ:** لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات جملةً. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع عديم في أوزان العرب.

مِن قَبْلِ هَذِهِ يَتَّسِرُ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّ الْأَوَّلِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾.

«هدى للناس» أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال: نحن متعبون بشرائع من قبلنا، فسره على العموم. **فَأَنْ قُلْتَ:** ما المراد بالفرقان؟ **قُلْتَ:**⁽³⁾ جنس الكتب السماوية؛ لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكرها، كأنه قال: بعد نكر الكتب الثلاثة وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما قال: **«وآتينا داود زبوراً»**⁽⁴⁾ وهو ظاهر، أو كرر نكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما نكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله. **«بآيات الله»** من كتبه المنزلة وغيرها. **«ذو انتقام»**⁽⁵⁾ له انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾.

وعن بعضهم أنه كره ذلك، وقال: يقال: قرأت السورة التي تنكر فيها البقرة. عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تنكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة، وتركها حسرة ولن تستطيعها البطة. قيل: وما البطة؟ قال: السورة»⁽¹⁾.

سورة آل عمران

مكية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٢﴾

ميم: حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها، كما تقول: واحد اثنان، وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة القيت عليها حين أسقطت للتخفيف.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام، فلا تثبت حركتها؛ لأن ثبات حركتها كتابتها. **قُلْتَ:** هذا ليس بدرج؛ لأن ميم في حكم الوقف، والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حذفت تخفيفاً والقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال.

فَأَنْ قُلْتَ: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ **قُلْتَ:** لأن التقاء الساكنين لا يبالي به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان في ألف لام ميم لالتقاء الساكنين ولما انتظر ساكن آخر.

فَأَنْ قُلْتَ: إنما لم يجرى لالتقاء الساكنين في ميم؛ لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك، فحركوا. **قُلْتَ:** اللبيل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة الحديث رقم: (1871).

(2) قال احمد بن زيد لان فعل صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً، كان أكثر تنزيلاً من غيره، لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة، لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة، والتكثير، والله اعلم.

(3) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكرها أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما أفرده وأخر نكره في قوله: **«وآتينا داود زبوراً»**، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له، ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعدما نكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، والله اعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر =

= التعبير عن نزول القرآن، بصيغة فعل تفرقة في التنزيل، كما تقدم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تاويلاته على القرآن، والتعبير عنه بأفعل كغيره، فإن يكن هذا، والله اعلم، فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى نكره ثانياً لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميزه أولاً، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى الكلام يجعل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(4) سورة النساء، الآية: 163.

(5) قال احمد، وإنما يلحق هذا التفضيح من التكثير، وهو من علاماته مثله في قوله: **«فقل ربكم ذو رحمة واسعة»**، قوله تعالى: **«منه آيات محكمات»** الآية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَهَلَا كَانَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ مُحْكَمًا؟ قُلْتُمْ: لَوْ كَانَ
 كله محكمًا لَتَعْلَقَ النَّاسُ بِهِ لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما
 يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال،
 ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله
 وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين
 الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء
 وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من
 الفوائد الجلية والعلوم الحجة ونيل الدرجات عند الله؛ ولأنَّ
 المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا
 رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه
 ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره،
 ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد
 طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه. **﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**
زَيْغٌ﴾ هم أهل البدع، **﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾**
 فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما
 لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق.
﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم
 ويضلوه، **﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** وطلب أن يؤولوه التأويل
 الذي يشتبهونه، **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي**
الْعِلْمِ﴾ أي: لا يهتدي⁽²⁾ إلا بتأويله الحق الذي يجب، أي:
 يحمل عليه، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي:
 ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من

﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ في العالم فعبير عنه بالسماء
 والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو
 مجازيهم عليه.

هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُكُمْ فِي الْأَرْبَابِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ
 طابرس: تصوركم، أي: صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت
 مالا، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأثلته إذا أثلته لنفسك،
 وعن سعيد بن جببر: هذا حجاج على من زعم أن عيسى
 كان رباً، كأنه نبه بكونه مصوراً على الرحم على أنه عبد
 كغيره، وكان يخفي عليه ما لا يخفي على الله.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ وَأُخَرُ يُؤْوِلُونَ. وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يُؤْوِلُونَ
بِهِ كُلٌّ مِنْ غَيْرِ نَبَاتٍ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

﴿محكمات﴾⁽¹⁾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من
 الاحتمال والاشتباه. متشابهات مشتبهات محتملات **﴿هُنَّ**
أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها
 وترد إليها، ومثال ذلك **﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ﴾** إلى ربها
 ناظرة **﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** **﴿أَمَرْنَا مَتَرَفِيهَا﴾**

= ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال، قد ثبت الفرق بين دخول كل
 على المعرف تعريف الجنس، وبين عدم دخوله الا ترى أنهم
 يقولون إن قولنا الإنسان كاتب مემول في قوة الجزئي، وأن قولنا
 كل إنسان حيوان كلي لا جزئي. لانا نقول إنما جارتنا القدرية
 على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأوصاف
 لكل واحد واحد من أقراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام
 وكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها
 بين الفرعيين، لا يثبت لما سماه أهل تلك الفن ميملاً، بل هذا هو
 الكلي عندهم، والله الموفق، وأما الآيات الأخرى، اللتان إحداهما
 قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْبِغْيِ﴾** التي هي قوله
 تعالى: **﴿أَمَرْنَا مَتَرَفِيهَا ففسقوا فيها﴾** فلا ينازع الزمخشري في
 تمثيل المحكم، والمتشابه بهما.

(2) قال أحمد رحمه الله: وقوله لا يهتدي إليه إلا الله، عبارة قلقة، ولم
 يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة
 إيهاماً إناً، لاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال،
 جل الله وعز، حتى أن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه فلان
 المهتدى، تلك مقتضى اللغة فيه، فإنه مطاوع هدى يقال: هديته،
 فاهتدى، الإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه، وكان موهماً
 لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل، ولذا أنكر على القاضي إطلاقه
 المعرفة على علم الله تعالى، حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة
 المعلوم على ما هو عليه، فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق
 الاهتداء على علم الله تعالى لجد، وما أراه صدرت منه إلا وهماً
 حيث أضاف العلم إلى الله تعالى، وإلى الراسخين في العلم، فاطلق
 الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه نكرهم مضامين إلى الله
 تعالى في الفعل المنكور، والله اعلم.

(1) قال أحمد: هذا كما قمته عنه من تكلفه، لتزليل الآي على وفق ما
 يعقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للراي، أو تلك أن معتقده
 إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم
 الجسمية، والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع
 الرؤية، كقوله: **﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** مالوا إلى جعله من المتشابه،
 حتى يرونه بزعمهم إلى الآية، التي يدعون أن ظاهرها يوافق
 رأيهم، والآية. قوله تعالى: **﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ﴾** وغرضنا الآن
 بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول محمل
 قوله: **﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ﴾** في دار النيبا، ومحمل الرؤية على
 الدار الآخرة جمعاً بين الأدلة، أو نقول البصائر وإن كانت ظاهرة
 العموم، إلا أن المراد بها الخصوص، أي: لا تدرکه أبصار الكفار،
 كقوله: **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾**، أو نقول:
 لا تعارض بين الآيتين، فنقر كل واحدة منهما في نصابها، وبيان
 ذلك أن البصائر عالم بالآلاف واللام الجنسية، ولا يتم غرض
 القدرية على زعمهم، إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذ يكون في
 العموم مرادفة لدخول كل؛ لأن كليهما أعني المعرف، والجنسي،
 وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا أثبت ذلك، فالسلب داخل على
 الكلية، والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئي لغة ومتعملاً،
 الا ترى أن الغائل، إذا قال لا تتفق كل الدراهم، كان المفهوم من
 ذلك الإذن في إنفاق البعض، والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث
 المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد، ولو واحداً وحينئذ
 يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض البصائر، وثبوتها
 لبعض البصائر، وهذا عين مذهب أهل السنة؛ لأنهم يثبتونها
 للموحدين، ويسلبونها عن الكفار، كما أنبا عنه قوله تعالى: **﴿كَلَّا**
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فقد ثبت أن هذه الآية، إما
 محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها دليلاً =

بالتي تقربكم عندنا زلفى⁽⁴⁾. وقرىء: وقود بالضم، بمعنى: أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا: من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير.

كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَآلِيزِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾.

الداب: مصدر داب في العمل إذا كدح فيه، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: داب هؤلاء الكفرة كذاب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن» تغني أو بالوقود، أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كذاب أبيك، تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإن فلاناً لمحارف كذاب أبيه، تريد كما حورف أبوه **﴿كذبوا بآياتنا﴾** تفسير لدابهم ما فعلوا وفعل بهم على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ رُبُّهُمْ وَإِلَىٰ جَهَنَّمَ يَنْزِلُ أُولَئِكَ

﴿قل للذين كفروا﴾ هم مشركو مكة **﴿ستغلبون﴾**

يعني: يوم بدر، وقيل: هم اليهود، ولما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، وهووا باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل: جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود احزنوا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل». فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصةً لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس⁽⁵⁾. فنزلت. وقرىء: سيغلبون ويحشرون بالياء، كقوله تعالى: **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم﴾**⁽⁶⁾ على قل لهم قولي لك سيغلبون.

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوقع به، والذي يدل عليه اللفظ، ومعنى القراءة بالياء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه، كأنه قال: أذ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

يقف على قوله **﴿إلا الله﴾** ويبتدئ **﴿والراسخون في العلم يقولون﴾** ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه والأول هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل. **﴿يقولون أمانا به﴾** أي: بالمتشابه **﴿كل من عند ربنا﴾** أي: كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه. **﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾** مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل، ويجوز أن يكون **﴿يقولون﴾** حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلا عند الله. وقرأ أبي: ويقول الراسخون.

رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَكِيلُ ﴿٨﴾.

﴿لا تزغ قلوبنا﴾⁽¹⁾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، **﴿بعد إذ هديتنا﴾** وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا إطفائك بعد إذ لطفت بنا. **﴿من لدينك رحمة﴾** من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرىء: لا تزغ قلوبنا بالتاء والياء، ورفع القلوب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ

الْوَعْدَ ﴿٩﴾.

﴿جامع الناس ليوم﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾**⁽²⁾. وقرىء: جامع الناس على الأصل **﴿إن الله لا يخلف للميعاد﴾**، معناه: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله. والميعاد: الموعد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُخْرِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾.

قرأ علي رضي الله عنه: لن تغني، بسكون الياء، وهذا من الجذ في استئصال الحركة على حروف اللين. من في قوله: **﴿من الله﴾** مثله في قوله: **﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾**⁽³⁾، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله **﴿شيئاً﴾**، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجذ منك الجذ»، أي: لا ينفعه جذه، وحظه من الدنيا بذلك. أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: **﴿وما أموالكم ولا أولادكم**

(1) قال أحمد: أما أهل السنة، فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرقة؛

لأنهم يوحدون حق التوحيد، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ، مخلوق لله تعالى، وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى، وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرقة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ب، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة، بأن لا يبيتنا، ولا يمنعنا لطفه أمين؛ لأن الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو، وأفعاله التي =

= نحن، وأفعالنا منها.

(2) سورة التغابن، الآية: 9.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) سورة سبأ، الآية: 37.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان

إخراج اليهود من المدينة الحديث رقم: (3001).

(6) سورة الأنفال، الآية: 38.

يريبهم الله نلك بقدرته. وقرىء: فئة تقاتل وأخرى كافرة بالجر على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقاتل. ﴿رأى العين﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعانيات، ﴿وأنه يؤيد بنصره﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْحَافِلِ السُّومِ وَالْأَنْمَةِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْرُ الْمَتَابِ (٧).

﴿زين للناس﴾ المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء كقوله: ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾ (9). ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان والله زينها لهم لأننا لا نعلم أحداً أنم لها من خالقها، ﴿حب الشهوات﴾ (10) جعل الأعيان التي نكرها شهوات مبالغة في كونها مشتبهةً محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخصيصها فيسميها شهوات؛ لأن الشهوة مستترنة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ ثم جاء بالتفسير ليقدر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخصيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهاك عليها ويرجع طلبها على طلب ما عند الله.

والقنطار: المال الكثير، قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و ﴿المقنطرة﴾ مبنية

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَيْنَ اتَّقَاتَا فَيَتَّعِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجًا كَافِرًا يَرُونَهُمْ يَنْكِبُهُمْ رَأَى الْفَيْءِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَكْفُرْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٣).

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركي قريش، ﴿في فئتين التقاتل﴾ يوم بدر. ﴿يرونهم مثلهم﴾ (1) يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين (2) ستمائة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قتلهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان نلك مدداً لهم من الله، كما أمدهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم بالتاء، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم.

فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ (3) قلت: قلوا أولاً في أعينهم حتى اجتروا عليهم، فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسئلكم عن نسيب إنس ولا جان﴾ (4) وقوله تعالى: ﴿وقفوههم إنهم مسؤولون﴾ (5) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ (6) بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ (7) ولذلك وصف ضعفهم بالقلّة؛ لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرف: يرونهم على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي:

(8) قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق، ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء من جوهر، ومن عرض قائم بالجواهر حب، أو غيره محمود في الشرع أولاً، ويطلق التزيين، ويراد به الحض على تعاطي الشهوات، والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً، كالنكاح المقدر بقصد التناسل، واتباع السنة فيه، وما يجري مجراه، وأما الشهوات المحظورة، فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته، وتحسينه منزلة الأمر بها، والحض على تعاطيها، وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأول، فإنه يحاشا أن ينسب خلق الله إلى غير الله، وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة، تنزيلاً لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفتن لها وبرئ قائلها من السلف الصالح، عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(9) قال أحمد: يريد إلحاقها بباب صوم وفطر مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(10) سورة الكهف، الآية: 7.

(1) قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدمة على رأي أهل السنة.
(2) قال أحمد: إنما قال نلك؛ لأن الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي: ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثليين أيضاً للمسلمين، وقد جاء على لفظ الغيبة، فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة، والالتفات، وإن كان سائفاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين، وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة؛ لأن مثليهم مفعول ثانٍ للرؤية، ولو قال القائل ظننتك يقوم على لفظ الغيبة بعد الخطاب لم يكن بذلك، فهذا هو الوجه الذي باعد الزمخشري به بين قراءة نافع، وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين أنفاً؛ لأنه قال معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم، أو مثلي فتتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني، يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة، في الجملة بعينها، كما الزمه هو على ذلك الوجه، والله أعلم.

(3) سورة الأنفال، الآية: 44.

(4) سورة الرحص، الآية: 39.

(5) سورة الصافات، الآية: 24.

(6) سورة الأنفال، الآية: 66.

(7) سورة الأنفال، الآية: 65.

ولو قلت: جاءني زيد وهند ركباً جاز لتمييزه بالذكر، أو على المدح.

فإن قلت: ليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة، كقولك: الحمد لله الحميد، إنا معشر الأنبياء لا نورث، إنا بني نeshل لا ندعى لأب! قلت: قد جاء نكرة، كما جاء معرفة، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي:

وياري إلى نسوة عطل وشعساً مراضيع مثل السعالي
فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفة للمنفي، كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت: لا يبعد فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

فإن قلت: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في لا إله إلا هو؟ قلت: نعم؛ لأنها حال مؤكدة، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائحتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

فإن قلت: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم، كما دخلت الوجدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفة للمنفي، كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قيمياً بالقسط. «العزیز الحكيم» صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل، يعني: أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله.

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعلوه؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعلوه بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وقرئ: أنه بالفتح، وإن الدين بالكسر على أن الفعل واقع على أنه بمعنى: شهد الله على أنه، أو بأنه.

إِنَّ الْزَيْدَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْمُ وَمَا أَخْتَلَكِ الْزَيْدُ أَوْ تَوَّأ الْكَيْتَبُ
إِلَّا مِنْ بَدِي مَا جَاءَهُمْ أَلْوَدُّ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ
فَإِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٠)

وقوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته أن قوله: «لا إله إلا هو» توحيد وقوله: «قائماً بالقسط» تعويل، فإذا أُرِدَفه قوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» فقد آتَنَ أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أن من ذهب إلى

من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة وبكرة مبكرة، و«المسومة» المعلمة، من السومة وهي العلامة، أو المطهمة، أو المرعية، من أسام الدابة وسومها. و«الأنعام» الأزواج الثمانية، «نلك» المنكور «متاع الحياة».

﴿قُلْ أَدَّبْتُكُمْ بِحَبْرٍ مِنْ دَلِيكُمْ لِذَلِّتُمْ أَثْقَالًا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِزْقٌ وَرِثَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمَعْبُودِ﴾ (١٠)

«للذين لثقوا عند ربهم جنات» كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أهلك على رجل عالم، عندي رجل من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بخير، واختص المتقين لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع «جنات» على هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ: جنات بالجر على البدل من خير. «والله بصير بالعباد» يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُكَ نَا دُؤُوبًا وَكُنَّا عَدَابَ
النَّارِ ﴿١١﴾ أَصْحَابِ الْأَيْمَانِ وَالَّذِينَ فِي الْأَيْمَانِ وَالَّذِينَ فِي
بِالْأَسْحَارِ (١١)

«الذين يقولون» نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجر صفة للمتقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها وقد مر الكلام في ذلك. وخص الأسحار؛ لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»^(١). وعن الحسن: كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم وهذا ليلهم.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا قَاتِلُوا قَاتِلًا بِأَنفُسِهِمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْمُكَرِّمُ (١٢)

شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة أولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه. «قائماً بالقسط» مقياً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والأجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه، كقوله: «وهو الحق مصدقاً».

فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت جاءني زيد وعمرو ركباً لم يجز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس، كما جاز في قوله: «وهو هينا له إسحق ويعقوب»^(٢) نافلة، أن تنصب نافلة حالاً عن يعقوب،

تشبيهه أو ما يؤدّي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى. وقرنا مفتوحين على أنّ الثاني بدل من الأول، كأنه قيل: شهد الله أنّ الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً لأنّ دين الله هو التوحيد والعدل. وقرئ: الأول بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على أن، وما بينهما اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أنّ دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إله إلا هو، وقرأ أبي: إنّ الدين عند الله الإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرئ: شهداء الله بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله.

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ: فَعَلِمَ عَطْفَ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، وَالْمَلَأْتِكُمْ، وَأُولُوا الْعِلْمِ؟﴾ قُلْتُمْ: عَلَى الضَّمِيرِ فِي شَهَدَاءِ، وَجَاز لَوْ قَوَعِ الْفَاعِلِ بَيْنَهُمَا.

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾﴾: لَمْ كَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟﴾ قُلْتُمْ: ذَكَرَهُ أَوَّلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا تِلْكَ الذَّاتُ الْمُتَمَيِّزَةُ، ثُمَّ نَكَرَهُ ثَانِيًا بَعْدَ مَا قَرَنَ بِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الْمَوْصُوفُ بِالصَّفَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِتَضَمُّنِهِمَا مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، فَطَلَّتِ النَّصَارَى، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالُوا: كُنَّا أَحَقُّ بِأَنْ تَكُونَ النَّبُوءَةُ فِينَا مِنْ قَرِيشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَمِّيُونَ، وَنَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا تَجْوِيرٌ لِلَّهِ ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: مَا كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ وَتَظَاهِرَ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ وَهَؤُلَاءِ بِمَذْهَبٍ إِلَّا حَسَدًا بَيْنَهُمْ وَطَلْبًا مِنْهُمْ لِلرِّيَاسَةِ، وَحِظْوَةً الدُّنْيَا، وَاسْتِتْبَاعَ كُلِّ فَرِيقٍ نَاسًا يَطُؤُنْ أَعْقَابَهُمْ لَا شَبِيهَةَ فِي

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قُمتَ في نظيره، مما صدر الكلام به إذا طال عهده، ونك أن الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله قائماً بالقسط، وهو التنزيه، فقال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم، مما أريد إيصاله به، والله أعلم، قال: وفيه أنّ من ذهب إلى تشبيه الخ، قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربة الإسلام، بل تصريح وما ينقم إلا أن صدقوا، وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، بأنهم يرون ربهم كالمقر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته؛ ولأنهم وحدها الله حق توحيده، فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم، ولافعالهم إلا هو واقتصرنا على أن نسبوا لانفسهم قدر تقارن فعلهم لا خلق لها، ولا تأثير غير التمييز بين افعالهم الاختيارية، والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم لا كقوم يغيرون في وجه النصوص، فيجحدون

يَعْمَكُم بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَكَّرُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَمِمُّ مُرْسِرُونَ ﴿١٣﴾.

﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، ومن إما للتبعيض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم: ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل مدارسهم، فدعاهم، فقال نعيم بن عمر والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قال: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة فهلما إليها. فأبيا⁽²⁾. وقيل: نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليتهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض لدينهم، وقرئ: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ أَتَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً وَعَرَّضُوا فِي بَيْتِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿ذلك﴾⁽³⁾ التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، كما طمعت المجبرة والحشوية. ﴿ووغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كباثرهم.

كَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ يَتَوَكَّرُ لَآ رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَمِمُّ لَنْ يُلَاقُوا ﴿١٥﴾.

﴿كيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون، فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلق بباطل وتطمع بما لا يكون. ودوي إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم

لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلّا: ﴿فهل أنتم منتهون﴾⁽¹⁾ بعد ما نكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعادنة وقلة الإنصاف؛ لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في هل فهمتها: توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي فهل أنتم منتهون بالتقاعد عن الانتهاه، والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد نفخوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور. ﴿وإن تولوا﴾ لم يضررك فإنك رسول منبه عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَكْثَرُ مِنَ الرِّجْسِ وَأَن تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾.

قرأ الحسن: يقتلون النبيين، وقرأ حمزة: ويقاثلون الذين يأمرون، وقرأ عبد الله: وقاثلوا، وقرأ أبي: يقتلون النبيين والذين يأمرون، وهم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء، وقتلوا أتباعهم، وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»، ثم قرأها، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف ونهوه عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار.

أَوَلَيْكَ الَّذِينَ صَبَّاتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّجْوَى ﴿١٧﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ لأن لهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

فإن قلت: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء؛ كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم، بمعنى من يكفر فبشرهم، وإن لا تغير معنى الابتداء، فكان دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْتَوْنَ إِلَيْكَ كِتَابَ اللَّهِ

= يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وتصديقاً بالشفاعة، لأهل الكباثر، وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة، وشقاً كيف ملا الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن أخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فاصمى أفئدتهم من قواطع البراهين، بمقومات السنة.

(1) سورة المائدة، الآية: 91.

(2) كشف الاستار، كتاب: الفتن، باب: فيمن قتل على ذلك الحديث رقم: (3314)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 56، والطبري في التفسير.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم توفيق العفو عن كباثر المؤمن الموحد، إلى مشيئة الله تعالى، وإن مات مصراً عليها إيماناً، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن =

أَلَيْسَ تَتَوَجَّعُ أَلَيْسَ مِنِّي وَتَرْزُقُنِي مَن تَشَاءُ بِمَنْ حَسَابٍ (٣٧).

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم وينزلهم، ويؤتيه العرب ويعزهم، وفي بعض الكتب: انا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد اطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم.

لَا يَخْذِي الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرَانَ أَوْلِيَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَمْكُلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ قُرْبَةً وَبِعُذْرِكُمْ اللَّهُ تَسْتَكْبِرُوا وَلِلَّهِ اللَّهُ الْعَصِيمُ (٣٨).

وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»⁽³⁾. نها أن يولوا الكافرين لقربة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشروا، وقد كثر ذلك في القرآن: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء لا تجد قوما يؤمنون بالله»⁽⁴⁾ الآية: والمحبة في الله، والبغض في الله، باب عظيم، وأصل من أصول الإيمان: «ومن دون المؤمنين» يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثروهم عليهم. «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء» ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني: أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان، قال:

تولّ عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس الذوك عنك بعازب

«إلا أن تتقوا منهم تقاة» إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرئ: تقية، قيل للمتقى: تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه، رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة وقشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: كن وسطاً وامش جانباً. «ويحذركم الله نفسه» فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن تتقوا معنى: تحذروا وتخافوا، فيعدي بمن، وينتصب تقاة، أو تقية على المصدر، كقوله تعالى: «اتقوا الله حق تقاته»⁽⁵⁾.

يأمر بهم إلى النار. «وهم لا يظلمون» يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنه في معنى: كل الناس، كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَلْمَلِكِ قُوِّي أَلْمَلِكِ مَن تَشَاءُ وَتَرْزُقُ أَلْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَن تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَن تَشَاءُ بِبِرِّكَ أَلْعَمِيرِ إِنَّكَ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩).

الميم في «اللهم» عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالثناء في القسم، ويدخل حرف النداء عليه وفيه لام التعريف ويقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك. «مالك الملك» أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، «تؤتي الملك من تشاء» تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك «وتنزع الملك ممن تشاء» النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأول عام شامل والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أن رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك⁽¹⁾ وروي: أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين زراعاً، وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالثلث العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لايتها لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر، وكبر المسلمون. وقال: «أضأت لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال: «أضأت لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم ضرب الثالثة فقال: «أضأت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام: أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعصمكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وإنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا⁽²⁾. فزلت.

فإن قلت: كيف قال: «بيدك الخير» فنكر الخير دون الشر؟ قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك؛ ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه.

تُولِجُ أَلَيْلٌ فِي أَلْنَهَارِ وَتُولِجُ أَلْنَهَارَ فِي أَلَيْلٍ وَتُعْرِجُ أَلْعَمَّ مِرَكَ

(1) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 57.

(2) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 57، وأخرجه أحمد في المسند 303/4، وابن أبي شيبة 422/14، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق.

(3) نكره الهندي في «مكذ العمال» (الحديث: 14972)...

(4) سورة المائدة، الآية: 51.

(5) سورة آل عمران، الآية: 102.

والأمد: المسافة، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ (4) وكرر قوله: ﴿وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني: أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رافته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته مرجو لسعة رحمته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَنُورٌ مُّغْفِرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ (5).

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3).

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة نون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته يرض عنكم ويغفر لكم، وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقلوبهم تصديقاً من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكنبه، وإذا رأيت من ينكر محبة الله ويصفق بيديه مع نكرها ويطرب وينعر ويصعق، فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرت وصعقته إلا لأنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستمحلّة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المني قد ملا إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة على حواليه قد ملؤوا أروانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون ويحببكم ويحببكم، من حبه يحبه. قال:

أحب أبا ثروان من حب تمره وأعلم أن الرفق بالجار أرفق
ووالله لولا تمره ما حبيبته ولا كان النبي من عبيد ومشرق
قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ الرَّؤُوفَ الْكَافِرِينَ (3).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وإن يكون مضارعاً، بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ابْنًا وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَ﴾ (6)

﴿آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما، و﴿آلِ عِمْرَانَ﴾ موسى وهرون ابنا عمران بن يصر، وقيل:

قُلْ إِنْ تُحِبُّوْا مَا فِي سُدُورِكُمْ أَوْ بُدُوهُ يَمَلِكُهُ اللَّهُ وَسَمَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (3).

﴿إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمُهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سرركم وعلنكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على عقوباتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (1) لأن نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا تختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن مواطن أموره لأخذ حذره، وتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيم على وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ قَدُورًا أَوْ أُنْفُسًا فِيهَا وَيُنْفِئُهَا اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (3).

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بـ ﴿تَوَدُّ﴾. والضمير في بيته لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب يوم تجد بمضمر نحو: انكسر، ويقع على ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتود خبره. أي: والذي عملته من سوء تود هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تود. فَإِنْ قُلْتِ: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله: وِدْتِ؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى؛ لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة، ويجوز أن يعطف وما عملت على ما عملت، ويكون تود حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وادة تباعد ما بينها وبين اليوم، أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ (2) يعني: مكتوباً في صحفهم يقرؤونه. ونحوه: ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (3).

(6) قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني، أن السورة تسمى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى ومريم، في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأما موسى وهارون، فلم ينكر من قصتهما في هذه السورة، فدل ذلك على أن عمران المذكور هنا، هو أبو مريم، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 28.

(2) سورة الكهف، الآية: 49.

(3) سورة المجادلة، الآية: 6.

(4) سورة الزخرف، الآية: 38.

(5) سورة فصلت، الآية: 43.

عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة.

ذُرِّيَّةً بِضْعًا مِنْ بَعِيْرٍ وَاللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ﴿٧٤﴾

﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران **﴿بعضها من بعض﴾** يعني: أن الألبان ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، موسى وهرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق، وقد نخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: **﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾** (١) **﴿والله سميع عليم﴾** يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

إِذْ نَادَىٰ أَمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَّيْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُرَرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿٧٥﴾

﴿إذ﴾ منصوب به، وقيل: بإضمار انكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان أم مريم البتول جدة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقد، وقوله: **﴿إذ قالت امرأت عمران﴾** على أثر قوله **﴿وآل عمران﴾** مما يرجح أن عمران هو عمران بن ماثان جد عيسى، والقول الآخر يرجح أن موسى يقرب بإبراهيم كثيراً في الذكر.

﴿فإن قلت﴾ كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ **﴿قلت﴾** كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول، لأن زكريا بن آن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوج زكريا بنته إيشاع أخت مريم، فكان يحيى وعيسى ابني خالة.

روي: أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل.

﴿محزراً﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه، ولا أستخدمه، ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروي أنهم كانوا يندرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي: محزراً مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق نكراً.

لَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَكِنَّ الذَّكَرَ لَأَلْأَنُّ وَإِنِّي سَخِطْتُ رَبِّيَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٧٦﴾

﴿قلما وضعتها﴾ (٢) الضمير لما في بطني وإنما أنت على المعنى؛ لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحيلة أو النفس أو النسمة.

﴿فإن قلت﴾ كيف جاز انتصاب **﴿أنثى﴾** حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ **﴿قلت﴾** الأصل وضعت أنثى، وإنما أنت لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في **﴿ما كانت أمك﴾** لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: **﴿فإن كانتا اثنتين﴾** (٣) وأما على تأويل الحيلة أو النسمة، فهو ظاهر، كأنه قيل: **﴿إنني وضعت الحيلة أو النسمة أنثى﴾**.

﴿فإن قلت﴾ (٤): فلم قالت: **﴿إنني وضعتها أنثى﴾** وما أرادت إلى هذا القول؟ **﴿قلت﴾** قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربه؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد نكراً ولذلك نذرت محزراً للسدانة. ولتكلّمها بذلك على وجه التحسر والحزن قال الله تعالى: **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها يقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور؛ وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس: والله أعلم بما وضعت، على خطاب الله تعالى لها أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره. وقرئ: وضعت، بمعنى: ولعل الله تعالى فيه سراً وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر تسلياً لنفسها.

﴿فإن قلت﴾ فما معنى قوله: **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾**؟ **﴿قلت﴾** هو بيان لما في قوله **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** من

= عطف كلامها عليه، وهو قوله: **﴿وإنني سميتها مريم﴾** إلخ، ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون، وليست الأنثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل، لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه، إلا ترى إلى قوله تعالى: **﴿لستنّ كاحد من النساء﴾**، فنفي عن الكامل شبه الناقص مع أن الكامل، لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم، ومنه أيضاً **﴿أمن خلق كمن لا يخلق﴾**.

(1) سورة التوبة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: الضمير في قوله وضعتها يتناول، إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة، وتلك الجهة كونها شيئاً وضع، لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها، وقد مر هذا البحث بعينه، عند قوله تعالى: **﴿فإن لم يكونا رجلين﴾**.

(3) سورة النساء، الآية: 176.

(4) قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى، لا حكاية عنها، وقد نكر أهل التفسير تأويل آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاية الله تعالى عنها، أعني قوله وليس الذكر كالأنثى، ويرشد إليه =

في الكعبة، فقالت لهم: بونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنت مائتان رؤوس بني إسرائيل وأخبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر، فالتقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتكفلها. والثاني أن يكون مصدرأ على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذئ قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى فتقبلها: فاستقبلها كقولك: تعجله بمعنى: استعجله، وتقصاه بمعنى: استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبال الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه. قال القطن:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بان تتبعه اتباعاً
ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»، أي: فأخذها في أول أمرها حين ولت بقبول حسن. **«وأنبتنا نباتاً حسناً»** مجاز عن التربة الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، وقرئ: وكفلها زكريا، بوزن وعملها. **«وكفلها زكريا»** بتشديد الفاء ونصب زكرياء الفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيدها قراءة أبي: وكفلها من قوله تعالى: **«فقال أكفلنيها»** (5). وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها وأنبتها، وكفلها على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ندعوا بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها؛ كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. **«وجد عندها رزقاً»** كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. **«أني لك هذا»** من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للدخول به إليك. **«قالت هو من عند الله»** فلا تستبعد، قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهدي، وعن النبي ﷺ: أنه جاع في زمن قحط، فأهدت له فاطمة

التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيها للعهد.

فإن قلت: علام عطف قوله: **«وأنى سميتها مريم»**؟ **قلت:** هو عطف على **«أنى وضعتها أنثى»** وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: **«وأنه لقسم لو تعلمون عظيم»** (1).

فإن قلت (2): فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ **قلت:** لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإغاة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» (3). فانه أعلم بصحته، فإن صح، فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهم، كقوله تعالى: **«لاغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين»** (4) واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وأما حقيقة المس والنخس، كما يتوهم أهل الحشو، فكلا ولو سلب إبليس على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صراخاً وعباطاً مما يبيلونا به من نخسه.

فَقَبِلَهَا رَبُّهَا بِعَرْلٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كَمَا دَخَلَ عَلَيْكَ زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ بِرَيْمٍ أَنَّى لِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رِزْقٌ مَن يَشَاءُ بِعَرْلٍ حَسَبٍ (٧٧).

«فتقبلها ربها» فرضي بها في النذر مكان النذر، **«بقبول حسن»** فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء، كالسعوط والدود لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس، كالحجبة

(1) سورة الواقعة، الآية: 76.

(2) قال أحمد: أما الحديث، فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام، بتحميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزح في فلسفة منتزعة في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قدمت عند قوله تعالى: **«لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»**، ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان، إلا طعن في خواصر القدرية، حتى يقرها، وكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري، وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى، وكلام رسوله عليه السلام، بما يتخيل كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة، وسوء =

= أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود، لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، وما هو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الوبي، وارتكاب الهوى الوبي.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: **«وأنكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً»** الحديث رقم: (3431)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام الحديث رقم: (6086).

(4) سورة الحجر، الآيات: 29، 30.

(5) سورة ص، الآية: 23.

رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم أثمرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت، وعلمت أنها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنتى لك هذا؟» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل». ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبِعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها⁽¹⁾. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ﴾ من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرة، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٨﴾

﴿هنالك﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت⁽²⁾، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿ذرية﴾ ولداً، والذرية يقع على الواحد والجميع. ﴿سميع الدعاء﴾ مجيبه.

فَتَادَعَا رَبَّهُ فَحَسَبَهُ فِي اللَّيْلِ وَرَأَى اللَّهَ يَبْسُطُ سِحْرَهُ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا كَرِيمًا ﴿٤٩﴾

قرىء: فناداه الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركب الخيل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ﴾ بالفتح على بان الله، وبالکسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع من القول. وقرىء: يبشرك وبيشرك من بشره وأبشيره، وبيشرك بفتح الياء من بشره. ويحيى إن كان أعجمياً، وهو الظاهر، فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كي عمر. ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ مصدقاً بعيسى مؤمناً به. قيل: هو أول من آمن به، وسمى عيسى كلمة؛ لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصدقاً بكلمة من الله مؤمناً بكتاب منه، وسمى الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويدرة لقصبيتها.

والسيد: الذي يسود قومه أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يرتكب

سيئة قط، ويا لها من سيادة. والحصور: الذي لا يقرب الناس حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل: هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأختل:

وشارب مريح بالكأس ناهمني لا بالحصور ولا فيها بسار فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنه مرّ وهو طفل بصبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: مالعب خلقت. ﴿من الصالحين﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾⁽³⁾.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَقَعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٥٠﴾

﴿أنى يكون لي غلام﴾ استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم ﴿وقد بلغني الكبر﴾، كقولهم: أدركته السنّ العالية، والمعنى: أثر في الكبر فأضعفني وكانت له تسع وتسعون سنة ولامراته ثمان وتسعون، ﴿كذلك﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل تلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفعال الخارقة للعادات.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَالْإِنْسَانَ الْأَبْرَارَ ﴿٥١﴾

﴿آية﴾ علامة أعرف الحبل لالتقى النعمة إذا جاءت بالشكر، ﴿قال آيتك أن لا﴾ تقدر على تكليم الناس ﴿ثلاثة أيام﴾، وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله، ولذلك قال: ﴿وانحر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة.

فإن قلت: لم يحبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدة لنكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال ومنتزعاً منه. ﴿إلا رمزاً﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك. يقال: ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر: الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب: إلا رمزاً، بضمّتين جمع رموز كرسول ورسول. وقرىء: رمزاً بفتحّتين جمع رامز كخادم وخدم،

= شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم، امتدّ أمه إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 130.

(1) أبو يعلى.

(2) قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر، على مشاهدة مثله، فإن العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى، وإن لم يقع نظيره، وأحسن من هذه العبارة، وأسلم أن يقال لما =

وهو حال منه ومن الناس نفعاً، كقوله:

سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة، ونحوه: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾⁽¹⁾ ﴿وما كنت بجانب الطور﴾⁽²⁾ ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم﴾ ﴿اقلامهم﴾ أزالهم، وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين، وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها. ﴿إذ يختصمون﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها.

فإن قلت: ﴿أيهم يكفل﴾، بم يتعلق؟ قلت: بمحنوف دل عليه ﴿يلقون اقلامهم﴾ كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إذ قالت الملائكة يريم إن الله يبذرك بكلمة منه أسفه السج عيسى ابن مريم وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين⁽¹⁵⁾.

﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك، كقوله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾⁽³⁾ وكذلك ﴿عيسى﴾ عرب من أيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في الماء.

فإن قلت: ﴿إذ قالت﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو بدل من ﴿وإذ قالت الملائكة﴾، ويجوز أن يبدل من ﴿إذ يختصمون﴾ على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

فإن قلت⁽⁴⁾: لم قيل ﴿عيسى ابن مريم﴾ والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفت على نساء العالمين.

فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت: لأن المسمى بها منكر.

فإن قلت⁽⁵⁾: لم قيل: ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكانه قيل: الذي يعر به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة. ﴿وجيهاً﴾ حال من كلمة، وكذلك قوله: ﴿ومن المقربين﴾ ﴿ويكلم﴾ ﴿ومن الصالحين﴾ أي: يشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو

متى ما تلقني فربين ترجف روائف اليتيم وتستطارا بمعنى: إلا متراً مزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، و﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرىء: والإبكار بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وإسحار، يقال: أثيته بكرةً بفتحيتين.

فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمُرُّ بِكَ إِذْ أَنْتَ بِكَ كَسْحَرٍ وَإِسْحَارٍ عَلَّ يَسَاءَ الْكَلِمَاتِ⁽¹⁶⁾.

﴿يا مريم﴾ روي أنهم كلموها شفاهاً معجزةً لزكريا، أو إرماساً لنبوة عيسى. ﴿واصطفاك﴾ أولاً حين تقبلت من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنوية، ﴿وطهرتك﴾ مما يستقدر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿واصطفاك﴾ آخراً ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

يَمُرُّ بِكَ أَيُّ رَبِّكَ وَأَسْمَى وَأَرْكَبُ مَعَ الزَّكِيَّةِ⁽¹⁷⁾.

أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع، وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ يُبَيِّنُ لِكَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُقْرُونَ أَقْلَسَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَوُونَ⁽¹⁸⁾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبا زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني: أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي.

فإن قلت: لم نغيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع الأنبياء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا

= المسح في الآية إن أريد به التسمية، وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم، والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتزم مع قوله اسمه، ويجب عن الإشكال بأن المسيح خير عن قوله اسمه والمراد التسمية، وأما عيسى ابن مريم، فخير مبتداً محنوف تقديره هو عيسى ابن مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المنكورة منقطعاً عن قوله المسيح، والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

(1) سورة القصص، الآية: 44.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

(3) سورة مريم، الآية: 31.

(4) قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها، أنى يكون لي ولد، ولم يمسنني بشر، فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد، ما يدل على أنه من غير أب إلا أنه لما نسب إليها دل على أنها فهمت من ذلك، كونه من غير أب، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه، فيقولون =

الدرجة في الجنة. وكونه ﴿من المقربين﴾ رفعه إلى السماء، وصحبته للملائكة.

وَكَيْفَ أَنْتَ إِذَا مَنَّ اللَّهُ فِي الْهَدْيِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمَكِيلِينَ ﴿٤١﴾.

والمهد: ما يهد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر، و﴿في المهد﴾ في محل النصب على الحال، و﴿وكهلاً﴾ عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا مَنَّ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾.

ومن بدع التفسير أن قولها: ﴿رب﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى: يا سيدي.

وَعِزَّةُ الْكِنَبِ وَالْحِكْمَةُ وَالنُّورَةُ وَالْإِنجِيلُ ﴿٤٨﴾.

﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجيهاً، أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع ويعلمه بالياء.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ أَطْيَبَ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَزْجِي الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَامَ وَأُنثِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرُسُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَسَمِّيًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ النُّورَةِ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾.

فإن قلت: علام تحمل ﴿ورسولاً﴾ و﴿ومصدقاً﴾ من المنصوبات المتقدمة وقوله: ﴿إني قد جئتكم﴾ و﴿لما بين يدي﴾ يابى حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق وفيه وجهان.

أحدهما: أن يضمن له وأرسلت على إرادة القول تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً باني قد جئتكم، ومصديقاً لما بين يدي، والثاني: أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق، فكانه قيل: وناطقاً باني قد جئتكم، وناطقاً باني أصدق ما بين يدي. وقرأ اليزيدي: ورسول، عطفاً على كلمة ﴿إني قد جئتكم﴾ أصله أرسلت باني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل. و﴿إني لأخلق﴾ نصب بدل من إني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي إني لأخلق لكم. وقرئ: إني بالكسر على الاستئناف أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فانفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فيكون طيراً﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: فانفخها. قال: كالهبرقي تنحى ينفخ

الفحما. وقيل: لم يخلق غير الخفاش. ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروي: أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطلق منهم آتاه، ومن لم يطق آتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿بإذن الله﴾ دعاء لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروي: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا: هذا سحر، فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرئ: تنخرون، بالذال والتخفيف.

﴿ولأحل﴾ رد على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم، ويجوز أن يكون مصدقاً مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم، والثروب، ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك، قيل: أحل لهم من السمك والطيور ما لا صيصة له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ: حرم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عز وجل، أو موسى عليه السلام؛ لأن نكر التوراة دل عليه؛ ولأنه كان معلوماً عندهم. وقرئ: حرم بوزن كرم. و﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إن الله ربي وربكم﴾ لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البدل من آية، وقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ اعتراض.

فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت: لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل حيث هداه للنظر في انلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جئتكم بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية بعد أخرى مما نكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله: وجئتكم بآيات من ربكم فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، ثم ابتداء، فقال: إن الله ربي وربكم. ومعنى قراءة من فتح؛ ولأن الله ربي وربكم فاعبده كقوله: ﴿إيلاف قريش... فليعبدوا﴾^(١) ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَصْرَائِيلَ إِلَى اللَّهِ فَأَلَّاكَ الْمُرَادُونَ مِنْ أَصْحَابِ اللَّهِ مَأْمَأًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدَ بِأَنَّكَ سُلَيْمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فلما احس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و ﴿إلى الله﴾ من صلة انصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرنني، أو

الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى. **﴿فاحكم بينهم﴾** تفسير الحكم قوله: **﴿فاعدنهم﴾** **﴿فنفوهم أجورهم﴾** وقرئ: فيوفيهم بالياء.

ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبا عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره **﴿نتلوه﴾**، و **﴿من الآيات﴾** خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي وبتلوه صلته ومن الآيات الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه. **﴿والذكر الحكيم﴾** القرآن وصف بصفة من هو من سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)

﴿إن مثل عيسى﴾ إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله: **﴿خلقه من تراب﴾** جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكذلك حال عيسى.

فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أم؟ قلت: هو مثله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه بونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرب للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: فأقم أولى؛ لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى، قال: فحزقيل أولى؛ لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق، ثم قام سالماً. **﴿خلقه من تراب﴾** قدره جسداً من طين **﴿ثم قال له كن﴾** أي: أنشأه بشراً، كقوله: **﴿ثم أنشأه خلقاً آخر﴾** (2) **﴿فيكون﴾** حكاية حال ماضية.

أَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ مِنْ آدَمَ نَكْرًا مِنَ الْمَتَرَيْنِ (٦٠)

﴿الحق من ربك﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس (3). ونهيه عن الامتراء - وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً - من باب التهيب لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

مَنْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقُلْ نَارًا تَدْعُ إِلَىٰ بَيْتِنَا وَبَيْتِنَا كَرًّا وَبَيْتِنَا وَسَيْدَانَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَلِ فَتَجْعَلْ

يتعلق بمحذوف حالاً من الياء أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه. **﴿نحن أنصار الله﴾** أي: أنصار دينه ورسوله.

وحواري الرجل صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضرىات الحواريات لخلوص الوانين ونظافتهن، قال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النواج وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة. وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم.

رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا آزَلْتَنَا وَآتَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٦١)

﴿مع الشاهدين﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لاممهم، أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ (٦٢)

﴿ومكروا﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة. **﴿ومكر الله﴾** أن رفع عيسى إلى السماء، والقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل. **﴿والله خير الماكرين﴾** أقوامهم مكرراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفَ إِنَّكَ مُتَوِّفِكُمْ وَرَأَيْتَكَ إِذْ وَطَّعْتَهُ مِنْ آدَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاءَ الْيَوْمَ آيَئَاتُكَ فَوَعَاؤُهُمْ يَوْمَ قَمْرِهِمْ إِذْ يَسُرُّونَ (٦٣) فَأَمَّا الْيَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٦٤) وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَلَّمُوا الْمَلَائِكَةَ فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٦٥)

﴿إذ قال الله﴾ ظرف لخبر الماكرين أو لمكر الله **﴿إني متوفيك﴾** أي: مستوفي أجلك ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخره إلى أجل كتبتك لك، ومميتك حتف أنك لا قتلاً بأيديهم، **﴿ورافعك إلي﴾** إلى سمائي ومقر ملائكتي، **﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾** من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل: متوفيك قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته. وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفى نفسك بالنوم، من قوله: **﴿والتي لم تمت في منامها﴾** (1) ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب. **﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾** يعلونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: 27 الحديث

رقم: (3647)، والحديث ليس عند مسلم.

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.

لَمَتَّ اللَّهُ عَلَى الْكَذِبِينَ ﴿١٦﴾.

منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاتبه، فما معنى: ضم الأبناء والنساء؟ قلتُ: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلان كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكتب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل والأصقهم بالقلوب وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لمتنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لبنية على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يرو واحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

إِنَّ مَثَدًا لَّهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ أَلْمَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي قص عليك من نبأ عيسى ﴿لهو القصص الحق﴾ قرئ: بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون؛ لأن اللام تنزل من هو منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر إن.

فإن قلتُ: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلتُ: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ومن في قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾ بمنزلة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد: الرد على النصارى في تثليثهم.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِرِينَ ﴿١٨﴾.

﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد لهم بالعذاب المنكور في قوله: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (4).

قُلْ يَأْمُرُ الْكِتَابَ تَمَازُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَسْبِيَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة. ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة

﴿فمن حاجك﴾ من النصارى ﴿فيه﴾ في عيسى ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي: من البينات الموجبة للعلم. ﴿تعالوا﴾ هلموا والمراد المجيء بالرائي والعزم، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة، ﴿ندع أبنائنا وأبنائكم﴾ أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة، ﴿ثم نبتهل﴾ ثم نتباهل، بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم.

والبهلة: بالفتح والضم للعة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، من قولك: أبهله إذا أهمله، وناقه باهل لا صرار عليها، وأصل الإبتهال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وروي: أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخلوا، قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءك بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فماش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا الف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبالاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نفرک على دينك ونثبت على ديننا. قال: «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم للمسلمين وعليكم ما عليهم». فأبوا. قال: «فإني أناجزكم». فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» (1). وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم علي ثم قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ (2)(3).

فإن قلتُ: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في أخذ

(3) سورة الأحزاب، الآية: 33.

الجزية الحديث رقم: (3041).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل = (4) سورة النحل، الآية: 88.

= أهل البيت الحديث رقم: (6211).

والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: ﴿إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أبحارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: ﴿اتخذوا أبحارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾⁽¹⁾، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: اليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالي أظعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرئ: كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن: سواء بالنصب بمعنى: استوت استواء. ﴿فإن تولوا﴾ عن التوحيد ﴿فقولوا لشهدوا بنا مسلمون﴾ أي: لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف بانني أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه أشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره.

يَأْتَلُ أَلْكِتَابِ لِمَ تُكَفِّرُونَ فِي إِبرَاهِيمَ وَمَا أَزَلَّتْ أَنْزَارُهُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾

زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه، ف قيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بازمنة متطولة. ﴿أفلا تعقلون﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءَ حَمِيَّتَهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ما للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره. و﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جانبتم ﴿فيمًا لكم به علم﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل، ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ ولا نكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها أنتم، هو أ أنتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاء، ومعنى الاستفهام: التعجب من حماقتهم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلتها، ﴿والله يعلم﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وأنتم﴾ جاهلون به.

مَا كَانَ إِبرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَيِّقًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا ﴿حنيئاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ كما لم يكن منكم، أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَدَيْنَ اللَّهِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب ﴿للذين اتبعوه﴾ في زمانه وبعده ﴿وهذا النبي﴾ خصوصاً ﴿والذين آمنوا﴾ من أمته. وقرئ: وهذا النبي بالنصب عطفًا على الهاء في اتبعوه أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفًا على إبراهيم.

وَدَّتْ صَالِحَةٌ مِنَ آهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُحْيُونَكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ودت طائفة﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعانداً إلى اليهودية. ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، أو وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم.

يَأْتَلُ أَلْكِتَابِ لِمَ تُكَفِّرُونَ بِيَاكِهِ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

﴿بيات الله﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها وشهادتهم اعترافهم بأنها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول. ﴿وأنتم تشهدون﴾ نعته في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً، وأنتم تعلمون أنها حق.

يَأْتَلُ أَلْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ أَلْحَقَ بِالْبَيْطِلِ وَتَكْفُرُونَ أَلْحَقَ وَأَنْتُمْ سَلْمُونَ ﴿٧١﴾

قرئ: تلبسون بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتازرا

وَقَالَتْ صَالِحَةٌ مِنَ آهْلِ الْكِتَابِ مَا مِثْلُ الْآيَةِ أُزِيلَ عَنَّا أَلْحَقَ وَأَنْتُمْ سَلْمُونَ ﴿٧٢﴾

﴿وجه النهار﴾ أوله قال:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليات نسرتنا بوجه نهار والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار ﴿واكفروا﴾ به في آخره، لعلهم يشكون في

البنغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: **أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ**، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى قوله: **﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ﴾** على هذا؟ **قُلْتُمْ**: معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من حاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون هدى الله بدلاً من الهدى، وأن يؤتى أحد خبر إن على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، **﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ﴾** حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويحضوا حجتكم. وقرئ: أن يؤتى أحد، على إن النافية وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، حتى يحاجوكم عند ربكم. يعني: ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله: **﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ بَيْنَكُمْ﴾** كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأن قولهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْتَهُمْ بَطْرَافٌ يُؤَدُّوهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْتَهُمْ يَدِيَارٌ لَا يُؤَدُّوهُ إِلَيْكَ إِنْ مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيُؤَلِّفُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَمُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٧٥).

عن ابن عباس **﴿مَنْ إِنْ تَأْتَهُمْ بَقَطَارٌ﴾** هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه، و**﴿مَنْ إِنْ تَأْتَهُمْ بَيْنَارٌ﴾** فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجدده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصراني لغلبة الأمانة عليهم، والخائفون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم. **﴿إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾** إلا مدة نواك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرئ: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تمنه بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام. **﴿ئَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ﴾** أي: لا يتطرق علينا عتاب ودم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا،

دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم، إلا لأمير قد تبين لهم فيرجعون برجعوكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: انزلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أول النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة لعلمهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ بَيْنَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ متعلق بقوله: **﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾** وما بينهما اعتراض أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتهم، ولا تقشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام^(١). **﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾** عطف على **﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾**^(٢) والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنه في معنى الجمع بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبنكم عند الله تعالى بالحنة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى: الاعتراض؟ **قُلْتُمْ**: معناه أن الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كيحكم وحيلكم، وزيك تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾** يريد الهداية والتوفيق، أو يتم الكلام عند قوله: **﴿إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ بَيْنَكُمْ﴾** على معنى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيب لهم. وقوله: **﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾** معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد

= الاستفهام، وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه، والله أعلم.

(2) قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: **﴿فَمَا مِنْكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾**.

(1) قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب؛ لأن الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله، أنه انكر عليهم، وبخهم على ما وقع منهم، وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بني إسرائيل، لاجل العلتين المنكورتين، فهو إثبات محقق، ويمكن أن يقال: روعيت صيغة =

وقرىء: ولا يأمركم، بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾ وفيه وجهان: أحدهما أن تجعل لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾⁽³⁾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يامر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ كما نقول ما كان يد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة، والمعنى أن رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يامر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله: ولن يأمركم، والضمير في ولا يأمركم وإيأمركم لبشر، وقيل لله، والهمزة في إيأمركم للإنكار. ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأنوه أن يسجدوا له.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَبَعَثْتُ مِنْكُمْ رَسُولًا مِمَّنْ لَمَّا تَتْلُونَ فِيهِ، وَتَنْصُرُوهُ قَالُوا أَأَقْرَبُكُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالُوا فَاتَّخَذُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٨﴾

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم. والثالث أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبي وابن مسعود: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب. واللام في ﴿لما آتيتكم﴾ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي لتؤمنن لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن ساء مسد جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكم لتؤمنن به وقرىء: لما آتيناكم، وقرأ حمزة: لما آتيتكم بكسر اللام، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، على أن ما مصدرية والفعلان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتصبرن لأجل

لا يعرضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك، لفرط جراتهم على الله وقساوة قلوبهم وبأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بئلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

مَا كَانَ لِإِنْسَرٍ أَنْ يُؤَيِّدَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ مُرْسِلِينَ الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨﴾

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى، وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»⁽¹⁾ فنزلت. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من نون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله»⁽²⁾. ﴿والحكمة﴾ يقول كونوا، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة. وعن الحسن: ربانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني العالم العامل المعلم. ﴿بما كنتم﴾ بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكثر روحه في جمع العلم ثم لم يجعله نريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء توثقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقرىء: تعلمون من التعليم وتعلمون من التعلم. ﴿تدرسون﴾ تقرأون، وقرىء: تدرسون من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كلكرم وكرم وأنزل، ونزل، وتدرسون من التدريس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس، كقوله: لتقرأه على الناس، فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّبِيِّ كَمَا اتَّخَذُوا لِرَبِّائِهِمْ أَلَكُفْرَ بَدَّ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٩﴾

= الضمير، وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً، ورسول خير الموصول، ولم يرد الـمخشري إلا الأول، وهو ظاهر الآية.

(1) الواحد في أسباب النزول ص 65.

(2) الواحد في أسباب النزول ص 65.

(3) سورة آل عمران، الآية: 79.

(4) قال أحمد: يزيد على أن قوله رسول فاعل جاء؛ لأنه لا يخلو من

﴿وكرها﴾ بالسيف، أو بمعابنة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإبرك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت. فلما رأوا بأسنا قالوا: أمانا بالله وحده، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال بمعنى طائعين ومكرهين.

قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَسَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبَى أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ شَهَادَةٌ وَمَا أُنزِلَ إِلَّا أَنْزَالٌ مُبِينٌ لَقَدْ نَزَّلَ الْحَقُّ الْكِتَابَ عَلَى قُلُوبِنَا وَأُنزِلَ الْإِنْشَاءَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَمَا أَوْحَىٰ وَمُؤَسَّسًا وَكَاتِبِينَ مِنَ رَّبِّهِمْ لَا تَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾.

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن معه بالإيمان، فلذلك وحّد الضمير في ﴿قل﴾، وجمع في ﴿أماناً﴾. ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه.

فإن قلت: لم عدي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتها؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأنّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالأخر. ومن قال: إنما قيل: علينا لقوله قل، ولينا لقوله قولوا، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأنّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتها، فقد تعسف الآ ترى إلى قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾⁽³⁾ ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾⁽⁴⁾، وإلى قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾⁽⁵⁾ ﴿ونحن له مسلمون﴾ موحدون مخلصون انفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها.

وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الدُّنْيَا فَلَنْ يَبْقَىٰ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾.

ثم قال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ يعني: التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿بنيماً فلن يقبل منه... من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشباع، وقرئ: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام. ﴿كيف يهدي الله قوما﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودلّ على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرسول حق، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة وهم اليهود، كفروا بالنبوي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم: طعمة بن أبيقق ووحوح بن الأسلت والحرت بن سويد بن الصامت.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ

أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون ما موصولة.

فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: ﴿ثم جاءكم﴾ لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة لأنك لا تقول للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت⁽¹⁾: بلى لأن ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتيتكم وجاءكم رسول مصدق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به. وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إصري﴾ عهدي، وقرئ: أصري بالضم، وسمي إصراً؛ لأنه مما يؤصر أي: يشد ويعد، ومنه الأصار الذي يعدد به، ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار. ﴿فاشهدوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. ﴿وانا على نلكم﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿من الشاهدين﴾ وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة.

مَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿فمن تولى بعد نلك الميثاق والتوكيد﴾ فالولئك هم للفاسيقون ﴿أي: المتمردون من الكفار.

أَفَنِعْمَ رِيبًا مِمَّا يَبْغُونَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا وَإِيجَابًا يُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملةً على جملة، والمعنى: فالولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبعون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أ﴾ يتولون، ﴿فغير دين الله يبعون﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروي: أنّ أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك⁽²⁾، فنزلت. وقرئ: يبعون بالياء وترجعون بالياء، وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغيين هم المتولون والراجعون جميع الناس. وقرئنا: بالياء معاً وبالطاء معاً. ﴿طوعاً﴾ بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه،

(3) سورة النساء، الآية: 166.

(4) سورة المائدة، الآية: 48.

(5) سورة آل عمران، الآية: 72.

(1) قال أحمد: يريد أن الكلام، وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد، فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

(2) الواحد في أسباب النزول ص 65 - 66.

مقبول التوبة إذا تاب فما معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ماتون على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين لن تقبل بغير فاء، وفي الأخرى فلن يقبل؟ قلت: قد أوردنا بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الغفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيح، كما تقول: الذي جاءني له درهم. لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: فله درهم.

فإن قلت: فحين كان معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾ بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجزه إلى الموت على الكفر؟ قلت: لأنه كم من مرتدٍ مژد الكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر.

فإن قلت: فاي فائدة في هذه الكناية، أعني إن كني عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة. قلت: الفائدة فيها جلية وهي التعليل في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم في صورة حال الأيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدها، الا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَكَانَ يُعَذِّبُهُمْ بِأَرْضٍ ذَمِيَّةً وَلَوْ أَفْتَدَى بِوَدَّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١١﴾

﴿ذهياً﴾ نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: ذهب بالرفع رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجالاً.

فإن قلت⁽²⁾: كيف موقع قوله: ﴿ولو أفتدى به﴾؟ قلت: هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل: فلن تقبل من

جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وشهدوا﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأن معناه بعد أن آمنوا بكفوله تعالى: ﴿فأصدقوا﴾ (١) وقول الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق. ﴿واش لا يهدي﴾ لا يلفظ بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾.

﴿لا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم والارتداد، ﴿واصلحوا﴾ ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح. قيل: نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على رذته وأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فأقبل إلى المدينة فتاب، وقبل رسول الله ﷺ توبته.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾.

﴿ثم ازدادوا كُفْرًا﴾ هم اليهود كفروا ببيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كُفْرًا بكفرهم بمحمد والقرآن، أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، ثم ازدادوا كُفْرًا بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه في كل وقت وعداوتهم له ونقضهم ميثاقه وفتنتهم للمؤمنين وصددهم عن الإيمان به وسخرتهم بكل آية نزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. ازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتريص بمحمد ريب المنون وإن أردنا الرجعة نافقتنا بإظهار التوبة.

فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما ازداد كُفْرًا فبئنه

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

= محنوقاً، يكون هذا المنكور منبهاً عليه بطريق الأولى، وهذه الحال المذكورة، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهياً، هي حالة أجدر بالحالات بقبول الغفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى لن يقبل من أحد منهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهياً، حتى تبين حالة أخرى يكون الاقتداء الخاص بملء الأرض ذهياً، هو أولى بالقبول منها، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور، وأما تنزيل الآية عليه، فمفسر جداً، فالأولى نكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه، وأقرب ماخذ إن شاء الله، فنقول قبول الغفدية التي هي ملء الأرض ذهياً، يكون على أحوال منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه، كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول، ومنها أن يقول المقتدى في التقدير، أفتدى نفسي بكذا، وقد لا يفعل، ومنها أن يقول هذا القول، وينجز المقدار الذي يفدي به نفسه، ويجعله حاضرأ عتيداً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول=

(2) قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره، ثم نقرر وجهاً يطابق الآية، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً، ولو أساء، فهذه الواو عطفت المنكور على محذوف تقديره أكرم زيداً، لو أحسن ولو أساء، إلا أنك نهيت بإيجاب إكراهه إن أساء، على أن إكراهه إن أحسن بطريق الأولى، ومنه كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم معناه، والله أعلم لو كان الحق على غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه نكر ما هو أسعر عليهم، فأوجه تنبيهاً على ما هو أسهل، وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع، وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً؛ لأن قوله، ولو افتدى به يقتضي شرطاً آخر،=

إِنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ فاعتقها⁽⁶⁾. ونزل بأبي نرّ ضيف فقال للمراعي: اتنتني بخير إبلي، فجاء بناقة مهزولة، فقال: خنتني. قال: وجدت خير الإبّل فلها، فنذرت يوم حاجتكم إليه. فقال: إِنَّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي. وقرأ عبد الله: حتى تنفقوا بعض ما تحبون⁽⁷⁾، وهذا دليل على أنّ من في مما تحبون للتبعيض، ونحوه: أخذت من المال. ومن في ﴿من شيء﴾ لتبيين ما تنفقوا أي من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه، ﴿فإن الله﴾ عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

﴿كُلُّ الطَّامِرِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَمَنْ قَاتَلُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّكُمْ صَادِقُونَ﴾^(١٦).

﴿كُلُّ الطَّامِرِ﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر، يقال: حل الشيء حلاً، كقولك: نلت الدابة ذلاً، وعزّ الرجل عزاً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيبه لحله وحرمه⁽⁸⁾، ولذلك استوى في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لِهِمْ﴾⁽⁹⁾. والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبّل واللبانها، وقيل: العروق، كان به عرق النساء فنذر إن شفي أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداءً، والمعنى: أنّ المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم، لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوه إسرائيل على نفسه فقتبوه على تحريمه. وهو ردّ على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم بما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم﴾⁽¹⁰⁾ إلى قوله

أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً⁽¹¹⁾، ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله: ﴿ولو أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾⁽²⁾ والمثل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة، تريد مثله: ولا هيثم الليلة للمطي، وقضية ولا أبا حسن لها، تريد ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن. كما أنّه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا تريد أنت، وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدّق به ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرئ: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب ملء ومل لرض بتخفيف الهمزتين.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَالِمٌ

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا برّ الله وهو ثوابه ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها، كقوله: ﴿انفقوا من طيبات ما كسبتم﴾⁽³⁾ وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي أنّها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ أحب أموالي إليّ بيرحاً فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رابع، أو مال راثع، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسّمها في أقاربه⁽⁴⁾. وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله. فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فكان زيداً وجد في نفسه وقال: إنّما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّ الله تعالى قد قبلها منك»⁽⁵⁾. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سببي جلولا يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبتّه، فقال:

= لأنه نيّه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً وعلى عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى.

(2) سورة الزمر، الآية: 47.

(3) سورة البقرة، الآية: 267.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: استعذاب الماء الحديث رقم: (5611)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين... الحديث رقم: (2312).

(5) الطبري وعبد الرزاق في تفسيرهما.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) راجع الدر المنثور.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطيب عند الإحرام الحديث رقم: (1539)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام الحديث رقم: (2818).

(9) سورة الممتحنة، الآية: 10.

(10) سورة النساء، الآية: 160.

= فديته، وإذا تعددت الأحوال، فالمراد في الآية أبلغ الأحوال، وأجدها بالقبول، وهو أن يفدي بملء الأرض ذهباً افتداءً محققاً، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم، ويسلمه وينجزه اختياراً ومع ذلك لا يقبل منه، فمجرد قوله أبذل المال، وأقدر عليه، أو ما يجري هذا المجري بطريق الأولى، فيكون دخول الواو، والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أنّ ثم أحوالاً أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المنكورة، وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً، ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم﴾، والله أعلم، وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص، ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلاس في ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار، ولو سلمتها إليّ في يدي هذه، فتامّل هذا النظر، فإنه من السهل الممتنع، والله ولي التوفيق.

(1) قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التاويل المتقدّم =

وهو الله، ومعنى وضع الله بيتاً للناس أنه جعله متعبداً لهم، فكانه قال: إن أول متعبد للناس للكعبة. وعن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أول مسجد وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس». وسئل: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم، فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أول بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بالفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فحسيت الأرض تحته. وقيل: هو أول بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بالفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات. **﴿للذي ببكة﴾** البيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام.

ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط في اسم موضع بالهدناء، ونحوه من الاعتقاب أمر راتب وراتم، وحمي مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكة إذا زحمة لزدحام الناس فيها. وعن قتادة: يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذا الشريب أخذته الأكة فخله حتى يبك بكة

وقيل: تبك أعناق الجبارة أي: تدقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. **﴿مباركاً﴾** كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار. **﴿وهدى للعالمين﴾** لأنه قبلتهم ومتعبدتهم.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُزَيَّرُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان لقوله: **﴿آيات بينات﴾** فإن قلت⁽⁶⁾: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت: فيه

تعالى: **﴿عذاباً أليماً﴾**⁽¹⁾ وفي قوله: **﴿وعلى الذين هادوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾**⁽²⁾ إلى قوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾**⁽³⁾ وجود ما غاظهم وأشمازوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم. فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرا إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدت من مساويهم التي كلما ارتكبوها منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم. **﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾** أمر بأن يحاجهم بكتابهم وبيبتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعون. فروي أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

فَبِمَا نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ تَخَذَ اللَّهُ كَذِبًا مِنْ بَدِّ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٨﴾

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** المكبرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾

﴿قل صدق الله﴾ تعريض بكذبهم، كقوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾**⁽⁴⁾ أي: ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾** وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم وديناكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم والزمتمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وضع للناس﴾ صفة لبيت، والواضع هو الله عز وجل، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل

= المساجد، ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1161).

(1) سورة النساء، الآية: 161.

(2) سورة الأنعام، الآية: 146.

(3) سورة الأنعام، الآية: 146.

(4) سورة الأنعام، الآية: 146.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى:

﴿وهبنا لداود سليمان﴾ الحديث رقم: (3425)، ومسلم في كتاب: =

(6) قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى: ﴿وقالوا

لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانتهم﴾.

والوجه الثاني اشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة

الصماء، آية وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر

نون بعض آية، وإبقاؤه نون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع =

ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى **«ومن يدخله كان آمناً»** معنى قوله: **«أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف الناس من حولهم»** (3)، ونلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: رب اجعل هذا البلد آمناً. وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه (4) وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبائع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار. وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً» (5). وعنه عليه الصلاة والسلام: «الحجون والبيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة» (6). وعن ابن مسعود: وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر» (7). وعن النبي ﷺ: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام» (8). **«من استطاع»** بدل من الناس، وروي: أن رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة (9)، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة. وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه، بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكذلك يجب عليه الحج. والضمير في **«إليه»** للبيت أو للحج، وكل ماتى إلى الشيء فهو سبيل إليه، (10) وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: **«وش على الناس حج البيت»** يعني: أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده، ومنها

وجهان:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالة على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: **«إن إبراهيم كان أمّة»** (1).

والثاني: اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يراد: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله لأن الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات. كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما. ونحوه في طي الذكر قول جرير:

كانت حنيفة ثلاثاً فلثلثهمو من العبيد وثلث من مواليتها
ومنه قوله عليه السلام: «حبيب إلي من نبياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة» (2). وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة: آية بيته، على التوحيد، وفيها دليل على أن مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان.

فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات، وقوله: **«ومن دخله كان آمناً»**، جملة مستأنفة، إما ابتدائية وإما شرطية؛ **قلت:** أجزت ذلك من حيث المعنى لأن قوله: **«ومن دخله كان آمناً»** دل على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات، مقام إبراهيم وأمن داخله، ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بيته من دخله كان آمناً صح، لأنه في معنى قولك: فيه آية بيته أمن من دخله.

فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ **قلت:** فيه قولان: أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر ففاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسْمُعِيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه

= كثرة عدوه من المشركين، وأهل الكتاب، والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

- (1) سورة النحل، الآية: 120.
- (2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (128/3)، (285).
- (3) سورة العنكبوت، الآية: 67.
- (4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 153/5 الحديث رقم: (9228).
- (5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك، فضل الحج والعمرة الحديث رقم: (4158)، وعبد الرزاق في المصنف 267/9 الحديث رقم: (17166)، والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (193)، والطبري في الصغير ص 304 الحديث رقم: (814).
- (6) نكره العجلوني في «كشف الخفاء» (419/1).

(7) نكره الهندي في «مكز العمال» (الحديث: 34960).

(8) قال الزيلعي غريب 1/201.

(9) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (2998) عن ابن عمر. وكذلك ابن ماجه عن ابن عمر في كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2896)، والحاكم عن أنس في المستدرک 442/1، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2897)، والدارقطني في كتاب: الحج 2/215.

(10) في هذا الكلام أنواع من التوحيد، منها قوله: **«وش على الناس»**، أي: في رقابهم لا ينفكون عنه إلخ.

كَمَلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿وَالله شهيد﴾ الواو للحال، والمعنى: لم تكفروا بآيات الله التي لتكنم على صدق محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته⁽⁹⁾.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّأْنَتَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلْبِعُوا قَرَبًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَدِّ إِلَيْكُمْ كَفْرِينَ ﴿١٩﴾.

قرأ الحسن: تصدّون من أصدّه، ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين حق، علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّمه عنه ويمنعون من أراد النحول فيه بجهدهم. وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فنكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثلها. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾⁽¹⁰⁾ تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة.

فَإِن قُلْتُمْ: كَيْفَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُوَ مُحَالٌ؟ قُلْتُمْ: فِيهِ مَعْنَيَانِ:

أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً بقولكم: إن شريعة موسى لا تتسخ، وتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضالّ مضلّ، أو أنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظامم أمورهم،

أنه نكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، والثاني، أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ومنها قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾⁽¹¹⁾ مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»⁽²⁾. ونحوه من التغليظ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»⁽³⁾، ومنها نكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب. وروي: أنه لما نزل قوله: ﴿وَالله عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾، جمع رسول الله ﷺ أهل الألبان كلهم فخطبهم فقال «إِنَّ الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فأمنت به ملة واحدة وهو المسلمون وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه. فنزل: «ومن كفر»⁽⁴⁾. وعن النبي ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»⁽⁵⁾. وروي: «حجوا قبل أن لا تحجوا. حجوا قبل أن يمنع البر جانب»⁽⁶⁾. وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تاكل منها دابة إلا نفقت⁽⁷⁾. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا⁽⁸⁾. وقرئ: حج البيت، بالكسر.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللهٌ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا

= الصلاة الحديث رقم: (1079)، والحاكم في المستدرک 1/ 6 - 7. الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2622).

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک عن علي 1/ 448. وابن أبي شيبة 15/ 49، كتاب: الفتن، باب: من كره الخروج...

(6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (294).

(7) قال الزيلعي غريب 1/ 207.

(8) عبد الرزاق في مصنفه 5/ 13، الحديث رقم: (8827).

(9) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 67. والطبري في تفسيره.

(10) قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول، حيث قال تطلبون لها اعوجاجاً تنقيص من المعنى، واتم من إعرابه، معنى أن تجعل الهاء في المفعول به، وعوجاً حال وقع فيها المصدر، الذي هو عوجاً موقع الاسم، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في نهمهم وتوبيخهم، والله أعلم.

(1) قال أحمد: قوله إن المراد بمن كفر من ترك الحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج، جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد، لا إلى مجرد الترك، وأما الزمخشري فيستحل ذلك، لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من رتبة الإيمان، ومن اسمه ومن حكمه؛ لأنه عنده غير مؤمن، ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما نكرناه هذا، إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج، ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، الحديث رقم: (812)، وأخرجه الدارمي عن أبي أمامة، كتاب: المناسك، باب: من مات ولم يحج الحديث رقم: (1785)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في المناسك الحديث رقم: (3978)، وعن أبي أمامة 3979.

(3) أخرجه أحمد في المسند 5/ 346 والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2621)، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة الحديث رقم: (463) وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن ترك

وهو الأحبار. ﴿وما الله بغافل﴾ وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

قيل: مرشاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحذثون، فغاظه ذلك، حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم وينكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل، ففتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح: فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم». وعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فآلقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالُ عَلَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَسُولٍ وَمَنْ يَنْعَمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٧﴾.

﴿وكيف تكفرون﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿تنلى عليكم﴾ على لسان الرسول غضة طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم. ﴿ومن يعنصم بالله﴾ ومن يتمسك بدينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. ﴿فقد هدى﴾ فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول إذا جئت فلاناً: فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل، فهو يخبر عنه حاصل، ومعنى التوقع في قد ظاهر لأن المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

يَأْتِيهِ الْبُرْهَانُ بَاطِنًا فَمَوْءُودًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَسُولٍ وَمَنْ يَنْعَمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٧﴾.

﴿حق تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وروي

مرفوعاً⁽¹⁾. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، والتقاة: من اتقى كالتؤدة من أتاها. ﴿ولا تموتن﴾ معناه: ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تاتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وَأَعْمَسُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَيْمًا وَلَا تَمَرُّوْا وَأَذْكُرُوا بِمَتِّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعِيْبِهِمْ إِنْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٧﴾.

قولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهد إلى عباده وهو الإيمان والطاعة، أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»⁽²⁾. ﴿ولا تفرقوا﴾ ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والالفة التي أنتم عليها مما ياباه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فآلف الله بين قلوبهم بالإسلام وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إخواناً﴾ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله. وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم فوعدت بينهما العداوة، وتناولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفا الله ذلك بالإسلام، وآلف بينهم برسول الله ﷺ. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام⁽³⁾، والضمير للحفرة

(3) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة، فلا يحتاج إلى تأويله المنكور، كما تقول أكرمت غلام هند، وأحسنتم إليها، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا، فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة، فيكون الإنقاذ من الشفا إيقاناً من الحفرة، التي يتوقع الهوى فيها، فإضافة العنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون =

(1) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/101).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن، الحديث رقم: (2906)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، والحاكم في المستدرک 1/555، وأخرجه ابن أبي شيبه 10/482، كتاب: فضائل القرآن، باب: في التمسك بالقرآن.

أو للنار أو للشفا، وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة وهو منها، كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وشفا الحفرة وشفتها، حرفها بالتذكير والتانيث، ولأما واو، إلا أنها في المنكر مقبولة وفي المؤنث محنوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قُلْتُمْ: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقيود على حرفها مشفين على الوقوع فيها. **«كُنْتُكَ»** مثل ذلك البيان البليغ، **«يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون»** إرادة أن تزدادوا هدى.

وَأَنْتُمْ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْوَةِ الرَّسْوَةِ رِئَاسَةً عَنِ الْكُفْرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ ﴿١٤﴾

«ولتكن منكم أمة» (1) من المتبعيض، (2) لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلاح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يبأشر. **فَإِنْ الْجَاهِلُ** ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في عذبه صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلب في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمانياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المأصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: **«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون»** (3) **«وأولئك هم المفلحون»** هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي ﷺ أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال:

«أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم الله وأوصلهم» (4) وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه» (5). وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له (6). وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه، فاعلم أنه مدهان، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فنديب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما طريق الوجوب؟ قُلْتُمْ: قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل، وعند أبي هاشم السمع وحده.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما شرائط النهي؟ قُلْتُمْ: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأن الواقع لا يحسن النهي عنه وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما شروط الوجوب؟ قُلْتُمْ: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف يبأشر الإنكار؟ قُلْتُمْ: بيتدئ بالسهل **فَإِنْ** لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر، قال الله

== بلغ واقع، مع أن اكتساب التانيث من المضاف إليه قد عدّه أبو علي في التعليل، من ضرورة الشعر خلاف رايه في الإيضاح نقله ابن يسعون، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا، إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها، وقد بنا في أراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني، إلا ترى إلى قوله عليه السلام: «المرتج حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، وإلى قوله تعالى: «أَمَّنْ أَسَّسَ بِنِيَانِهِ عَلَى شِفا جِرفِ هَارٍ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله «هَارٍ»، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا التبعض، وتذكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وإنه لا يخاطب به إلا الخواص، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: «اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لعد» **فَإِنَّمَا** وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: **«وتعياها أنن وأعيه»**، حتى ورد في التفسير أن المراد أنن واحدة مخصوصة، وهي أنن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤنن بمزيد اعتناء بالخاص، =

= لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، وكقوله: «ففيهما فاكهة ونخل ورمان» وكقوله: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» وشبه ذلك؛ لأن الإقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر، يفيد تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناولها، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهي لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال، فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً، وفي تنبيه أن الذكر على وجهين، ما لا يخفى من العناية، والله أعلم، إلا أن ثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، فإن ذلك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

(4) أخرجه أحمد في المسند 432/1.

(5) ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (2104/6) وكنز العمال (5564).

(6) أبو نعيم في الحلية 74/1.

تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما﴾⁽¹⁾ قال: فقاتلوا.

فإن قلت: فمن يبائسه؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنه معلوم قبحه لكل أحد، وأنا الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عنتها.

فإن قلت: فمن يؤمر وينهى؟ قلت: كل مكلف وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوبوها كما يؤخذون بالصلاة ليمرونا عليها.

فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ قلت: نعم يجب عليه لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجب عليه فيتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا؛ وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أعمل، فقال: وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر.

فإن قلت: كيف قيل: يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ قلت: الدعاء إلى الخير عام في التكليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضله، كقوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾⁽²⁾.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَدَى مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

«كالذين تفرقوا واختلفوا» وهم اليهود والنصارى، **«من بعد ما جاءهم البينات»** الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية وأشباههم⁽³⁾.

يَوْمَ يَبَسُّ وَجُوهُهُمْ وَسُودَ وَجُوهُهُمُ بَاطِنٌ لِمَا كَفَرْتُمْ بَدَىٰ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

«يوم تبيض وجوه» نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار أنكر. وقرئ: تبيض وتسود بكسر حرف المضارعة، وتبيض وتسود، والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق، وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل، وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته، وأسودت صحيفته، وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة

رحمته من ظلمات الباطل وأهله. **«أكفرتهم»** فيقال لهم: أكفرتهم، والهزمة للتوبيخ والتعجب من حالهم، والظاهر أنهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء. وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دعت عيناه، ثم قال: «كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء» فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بل سمعت من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دعت عينك! قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده، فقال: إن بارضك منهم كثيراً فاعانك الله منهم⁽⁴⁾. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم **«ألست بربكم قالوا بلى»**.

وَأَمَّا الَّذِينَ آيَّضَتْ وَجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾

«ففي رحمة الله» ففي نعمته وهي الثواب المخلد. **«فإن قلت:** كيف موقع قوله: **«هم فيها خالدون»** بعد قوله: **«ففي رحمة الله»**؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

يَلَّكُم مَائِكُمْ اللَّهُ تَتَلَوْنَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٩﴾

«تلك آيات الله» الواردة في الوعد والوعيد، **«نتلوها عليك»** ملتبسة **«بالحق»** والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه. **«وما الله يريد ظلماً»** فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن، ونكر ظلماً. وقال: **«للعالمين»** على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عن يصفه بإرادة القبائح والرضا بها⁽⁵⁾.

كُتِبَ خَيْرَ مَا أُمِرُوا أَنْ يُكْرَهُوا وَكَرِهُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾
كُتِبَ خَيْرَ مَا أُمِرُوا أَنْ يُكْرَهُوا وَكَرِهُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾
كُتِبَ خَيْرَ مَا أُمِرُوا أَنْ يُكْرَهُوا وَكَرِهُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾

كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع

= في المستدرک 149/2.

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) سورة البقرة، الآية: 238.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، الحديث رقم: (3000)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في نكر الخوارج الحديث رقم: (176)، وأحمد في المسند 253/5، والحاكم =

(4) إن أراد بهم: أهل السنة ومن وافقهم، كعانته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة.

(5) يريد: أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف.

أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليئتهم الأديار.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما موقع الجمليتين، أعني: ﴿منهم المؤمنون﴾ و﴿ولن يضروكم﴾؟ قلت: هما كلامان واردان على طرق الاستطراد عند إجراء نكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى نكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت. ولذلك جاء من غير عاطف.

صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا ثَمَّرُوا إِلَّا يَحْبِلُونَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَوَأُوْءُ يَمْصَبُ مِنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ الْآلِهَةَ بغيرِ حَقِّ ذَلِكَ يَمَّا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدْرُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿بحبل من الله﴾ في محل النصب على الحال بتقدير إلا معتمدين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس. يعني: ذمة الله وذمة المسلمين. أي: لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية. ﴿وبإعواء بغضب من الله﴾ استوجوبه، و﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما نكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب من الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. ثم قال: ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه: ﴿مما خطيأتهم أغرقوا﴾، و﴿واخذهم الربا وقد نهوا عنه وكلهم أموال الناس بالباطل﴾.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ لَّيَكُنَّ عَلَيْنَا حَرْبٌ وَإِن نَّتَّبِعِ الْآيَاتَ لَسَوْفَ يَكُونُ عَلَيْنَا جِثْمًا وَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّمَّنْ دُونِ اللَّهِ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا وَليلًا وَسُبِّحْ لَهُ بِالْغُحُوخِ وَالسُّجُودِ وَالسَّمْجُودِ ﴿١٣٨﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ بِالْغَيْبِ أَشْفَاءُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّمَّنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ عَدُوٌّ لِلَّذِينَ آمَنُواْ سَوَاءٌ مِّنْ أُمَّةٍ قَدِ افْتَرَتْ آلِهَةً مِّمَّنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ سَوَاءٌ مِّنْ أُمَّةٍ قَدِ افْتَرَتْ آلِهَةً مِّمَّنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾⁽¹⁾ ومنه قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾، كأنه قيل: وجدتم خير أمة. وقيل: كنتم في علم الله خير أمة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم منكوريين بأنكم خير أمة موصوفين به. ﴿والخرجت﴾ أظهرت، وقوله: ﴿تأمرون﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم: ﴿وتؤمنون بالله﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله. ويقولون: تؤمن ببعض وتكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ مع إيمانهم بالله ﴿لكان خيراً لهم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إتياء الأجر مرتين ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، و﴿واكذبرهم الفاسقون﴾ المتمردون في الكفر.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٌّ وَإِنْ يَعْتَدُواْ لَكُمُ الْاَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُغْنَوْنَ عَنْكُمْ ﴿١٤١﴾.

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتضراً على أذى، بقول من طعن في الدين أو تهديداً ونحو ذلك. ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأديار﴾ منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر. ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم، وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر بيالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وإن عاقبة أمرهم الخذلان والذل.

فَإِنْ قُلْتُمْ:⁽²⁾ هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأديار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية إنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم امر، وكان كما

(1) سورة النساء، الآية: 96.

= مطلقاً، ويزيد هذا الترتي بخول ﴿ثم﴾ دون الواو، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال: ثم ههنا ما هو أعلى في الامتحان، وأسمع في رتب الإحسان، وهو: أن هؤلاء قوم ﴿لا ينصرون﴾ البتة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وهذا من الترتي في الوعد، عما هو أدنى، إلى ما هو أعلى؛ لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأديار، عند المقابلة، ثم ترتي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح، من أن هؤلاء ﴿لا ينصرون﴾ =

إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلتُ: ضمن معنى الحرمان فكأنه قليل: فلن تحرموه، بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ: يفعلوا ويكفروه بالياء والتاء. ﴿والله عليم بالمتقين﴾. بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَيقَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧﴾.

الصر: (6): الريح الباردة، نحو الصرصر. قال:

لا تعجلن أنابيين تضربهم نكباء صرباً أصحاب المحلات
كما قالت ليلى الأخيلية: ولم تغلب الخصم الالاد وتملا
الجفان سديفاً يوم نكباء صرصر.

فإن قلتُ: فما معنى قوله: ﴿كمثل ريح فيها صر﴾؟
قلتُ: فيه أوجه:

أحدهما: أن الصر في صفة الريح بمعنى الباردة،
فوصف بها القرة بمعنى فيها قرة صر، كما تقول برد بارد
على المبالغة.

والثاني: أن يكون الصر مصدرأ في الأصل بمعنى
البرد، فجاء به على أصله.

والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في
رسول الله أسوة حسنة﴾ (6) ومن قولك: إن ضعيفي فلان
ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمٰن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر
وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله
بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا
يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة
رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما
أنفقوه لأجله، وشبه بحرث ﴿قوم ظلموا أنفسهم﴾ فأهلك
عقوبة لهم على معاصيهم لأن الإهلاك عن سحق أشد
وأبلغ.

فإن قلتُ (7): الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه
وضياعه بالبحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق
للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح! قلتُ: هو من

الضمير في ﴿ليسوا﴾ لاهل الكتاب أي: ليس أهل
الكتاب مستويين. وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾
كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله:
﴿تأمرون بالمعروف﴾ (1) بيانا لقوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ (2)
أمة قائمة مستقيمة عادلة من قوله: أقمت العود فقام،
بمعنى استقام. وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهجدهم
بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما
يفعلون وأدل على حسن صورة أمرهم. وقيل: عن صلاة
العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود
رضي الله عنه: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج
إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما أنه
ليس من أهل الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم» (3).
وقرأ هذه الآية. وقوله: ﴿يتلون﴾ و ﴿يؤمنون﴾ في محل
الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة، تالون مؤمنون، وصفهم
بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل
ساجدين، ومن الإيمان بالله لأن إيمانهم به كلا إيمان
لإشراكهم به عزيزاً وكفرهم بعبادة الكتب والرسل دون بعض،
ومن الإيمان باليوم الآخر لأنهم يصفونه بخلاف صفته،
ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا
مداهنيين، ومن المسارعة في الخيرات لأنهم كانوا متباطئين
عنها غير راغبين فيها.

والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه، لأن من رغب
في الأمر سارع في توليه والقيام به وأثر الفور على
التراخي. ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿من﴾
جملة ﴿الصالحين﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله
ورضيهم واستحقوا ثنائه عليهم، ويجوز أن يريد
بالصالحين المسلمين.

وَمَا يَتَعَلَّوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكَفِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْئْتِنِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْبِئَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعل بالشكر
في قوله: ﴿والله شكور حلِيم﴾ (4) في معنى توفية الثواب،
نفى عنه نقيض ذلك.

فإن قلتُ: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان

- (1) سورة آل عمران، الآية: 110.
(2) سورة آل عمران، الآية: 110.
(3) أخرجه أحمد في المسند 1/396، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب: مواقيت الصلاة، الحديث رقم: (1530).
(4) سورة التغابن، الآية: 17.
(5) قال أحمد: كلها أوجه وجيهة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها، فنقول: إذا قلت مثلاً، إن ضعيفي زيد، ففي عمر، وبعد الله كاف، فنقولك: كاف، أثبت منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فشخصت =

- = نك المطلق المجرد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه الذكته، فإنها لطيفة، والله موفق.
(6) سورة الاحزاب، الآية: 21.
(7) قال أحمد: إما إيراد السؤال، فلا ترتضى صيغته، لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل، المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى، أن يذكر بصيغته الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة، والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإن أحدنا لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر، بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف =

التشبيه المركب الذي مرّ في تفسير قوله: ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾، ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث. وقرئ: يتفقون بالتاء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمتقين، على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم ياتوا بها مستحقّة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم. أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ: ولكن بالتشديد، بمعنى: ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

﴿إن كنتم تعقلون﴾ ما بين لكم فعملتم به. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة؟ قلت: يجوز أن يكون لا يالونكم صفة للبطانة، وكذلك قد بدت البغضاء، كأنه قيل: بطانة غير اليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما قد بينا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستانفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة.

﴿مَا تَسْتَأْذِنُ أَوْلَاءَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَلَا تَتُوبُونَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَا تَقُولُونَ حَسْرَةً﴾
﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ لِيُصْطَفَىٰ مَنِ اسْتَأْذَنَ مِنِّي﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨).

﴿ها﴾ للتنبية، و﴿انتم﴾ مبتدأ، و﴿أولاء﴾ خبره: أي: انتم أولاء الخاطئون في مولاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في مولااتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: أولاء موصول تحبونهم صلته. والواو في ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم. أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم! وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حَقِّكم، ونحوه فإنهم يالمنون كما تالمنون، وترجون من الله ما لا يرجون. ويوصف المغتاط والنادم بعضُ الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فاتنل أقواماً لشاماً أنلُةً يعضون من غيظ رؤوس الأباهم
﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من النال والخزي والتبار. ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها.

﴿فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلًا في جملة المقول فمعناه أخبرهم بما يسرونه من

بَيِّنَاتٍ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةٍ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣٨).

بطانة الرجل ووليجه: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه يسقوره ثقةً به، شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار، والناس دثار» (١). ﴿من سونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بلا تتخذا وبيطانة على الوصف، أي: بطانة كائنة من نونكم مجاوزة لكم. ﴿لا يالونكم خبالاً﴾ يقال: الال في الأمر يالو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدي إلى مفعولين في قولهم: لا الالك نصحا ولا الالك جهداً، على التضمين، والمعنى: لا أمنعك نصحاً ولا أنقصك، والخبال الفساد. ﴿ودوا ما عنتم﴾ ودوا عنتم، على أن ما مصدرية، والعنت شدة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره. أي: تمنوا أن يضرركم في دينكم وديناكم أشد الضرر وأبلغه. ﴿قد بدت للبغضاء من أفواههم﴾ لأنهم لا يتماكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينقلت من السننتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك. وفي قراءة عبد الله: قد بدأ البغضاء. ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب

هذا النظم في المثل المنكور، لفائدة جلية، وهو تقديم ما هو أهم؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب، نكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من نكر الحرث، فقدمت عنابة بنكرها، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة، برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: ﴿فرجل وأمرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ الآية ومثله أيضاً: أعدت هذه الخشية أن يميل الحائط فادعمه، والأصل أن تنكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وإن ادعم بها الحائط إذا مال، وأمثال تلك كثيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف الحديث رقم: (4330)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... الحديث رقم: (2443).

في إيراد، وبعد عن أمثاله هذه العبارة، ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً، لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه وسمعه، على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد، وأن يتأبى في الإيراد، ثم تعود إلى جواب الزمخشري الثاني، وهو قوله: أن المراد: مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب، عن المطابقة المسؤولة عنها، والسؤال باقي، وذلك أن الريح المشبه بها، ليست: الإهلاك، وإنما هي: المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول أصل الكلام، والله أعلم مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم، فأصابته ريح فيها صر، فأهلكته ولكن خولف =

﴿و﴾ انكر ﴿إذ غدوت من اهلك﴾ بالمدينة، وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الانصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عنوة قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وانت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبننا عنهم. فقال ﷺ: «إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبة حولي فأولتها خيراً، ورأيت في نواب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كاني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم». فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى نخل، فلبس لأمته، فلما رآه قد لبس لأمته دموا وقالوا: بشما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه. وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بها القدح، إن رأى صدرأ خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا». ﴿تَبَوُّؤُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم، وقرأ عبد الله للمؤمنين بمعنى تسوي لهم وتهيئ. ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صَنْقٍ﴾ قبل أن تقوم من مقامك ﴿من مجلسك وموضع حكمك. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وضمائرهم.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا ﴿١٣٧﴾

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غدوت، أو عمل فيه معنى سميع عليهم. والطائفتان: حيان من الانصار بنو سلمة من

عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم مما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بالسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثم قول وإن يكون قوله: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس. وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِن تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَنْوُوهُمْ وَإِن تَصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَنْزِعُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣٨﴾

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع. والسيئة: ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة.

فإن قلت⁽¹⁾: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ قلت: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك مصيبة﴾⁽²⁾ ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾⁽³⁾ ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾⁽⁴⁾ ﴿وإن تصبروا﴾ على عداوتهم، ﴿وتتقوا﴾ ما نهيتهم عنه من موالاتهم، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضرركم كيدهم. وقرئ: لا يضرركم، من ضاره يضيره ويضرركم، على أن ضمة الراء لا تباع ضمة الضاد، كقولك: مد يا هذا، وروى المفضل عن عاصم: لا يضرركم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أرادت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك. ﴿إن الله بما تعملون﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿محيط﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء، بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوُّؤُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

(1) قال أحمد: يمكن أن يقال المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكان الكلام، والله أعلم: إن تصيبكم الحسنة أدنى تسؤهم، ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها، إلى الحد الذي يرثي الشامات عنده منها، فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم، ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 50.

(3) سورة النساء، الآية: 79.

(4) سورة المعارج، الآيتان: 20، 21.

ينعم الله عليكم نعمةً أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِن بَدَلٍ لَّكُم مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ مُزِيلِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثانٍ من إذ غدوت على أن يقوله لهم يوم أحد. **فَأَنْ قُلْتُ:** كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ **قُلْتُ:** قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويشقوا بنصر الله. ومعنى ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنما جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقتلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر.

بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَبُّكُمْ جَسَدًا آخَرَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٣٨﴾.

و ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسؤمين للقتال، ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعني: المشركين، ﴿مِّن فُورِهِمْ هَذَا﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره، ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة. ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول من ساعته لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمددكم بركم﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد أن الله يجعل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم. وقرئ منزلين بالتشديد، ومنزليين بكسر الزاي، بمعنى: منزليين النصر. ومسؤمين بفتح الواو وكسرها، بمعنى معلمين ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على اكتافهم، وعن الضحاک: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأنسابها، وعن مجاهد: مجزوزة أنساب خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوموا فلن الملائكة قد تسومت»⁽³⁾.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا

الخراج وينو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين. والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانحزل عبد الله ابن أبي بلثث الناس، وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا. فتبعهم عمرو بن حزم الأنصار فقال: انشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو تعلم قتلاً لا تتبعناكم، فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ⁽¹⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يرد بها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه. كما قال عمرو بن الأبطاني:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأبطاني: ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية. والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله.

فَأَنْ قُلْتُ: فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا؟ **قُلْتُ:** معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة، بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لنزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم، كقوله: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾⁽²⁾. أمرهم بالآياتوكلاؤا إلا عليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه.

وَلَقَدْ صَرَّفَكُمُ اللَّهُ يَدَيَّرُ وَأَنْتُمْ أُولَئِكَ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٩﴾.

ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة ونية.

والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على نلتهم كانوا قليلاً. ونلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقتلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشك والشكوة.

وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما انعم به عليكم من نصرته، أو لعلكم

(1) السير والمغازي لابن إسحاق ص 324.

(3) ابن أبي شيبة 14/358، كتاب: المغازي، باب: غزوة بدر الكبرى.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمَرْبِزَ الْحَكِيمِ ﴿١٣٦﴾.

فتتشفى منهم. وقيل: شج عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم⁽²⁾ فنزلت. وقيل: أراد أن يدعو عليهم، فنهاه الله تعالى لعلمه أن فيهم من يؤمن.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَمُرُّ لَيْلًا وَمِنْ لَيْلَةٍ وَمِنْ نَحْوِهَا مَا يُخْفَى ۗ وَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعَفَا رَحْمَةً ﴿١٣٧﴾.

وعن الحسن⁽³⁾: «يغفر لمن يشاء» بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين. «ويعذب من يشاء» ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً، وإتباعه قوله: «أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»⁽⁴⁾ تفسير بين لمن يشاء وأنهم المتوب عليهم أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخطون خطب عشواء ويطيّبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

يَتَأْتِيهِمُ الْكُفْرُ مَأْتِيًا وَلَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَافًا مِّثْقَالًا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٨﴾.

«لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفة» نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل، فاستغرق بالشيء الطفيف مال المدينة.

وَاتَّقُوا الْكُفْرَ الَّذِي أَعْدَتِ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٠﴾.

«واتقوا النار التي أعدت للكافرين» كان أبو حذيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمد ذلك بما اتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى. وفي نكره تعالى لعل وعسى في نحو هذه المواضع، وإن قال الناس ما قالوا، ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

﴿وما جعله الله﴾ الهاء لان يمدكم، أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون. ﴿ولتطمئنن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم. ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن تلك مما يقوي به الله وجاء النصر والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين. ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الحكيم﴾ الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

يَتَمَطَّعُونَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُونَ قَتْلَهُمْ خَائِبِينَ ﴿١٤١﴾.

«ليقطع طرفاً من الذين كفروا» ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم. «أو يكتمهم» أو يخزيهم ويغيبهم بالهزيمة، «فيتقلبوا خائبين» غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم يتالوا خيراً»⁽¹⁾.

ويقال: كبت، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه. وقيل: في قول أبي الطيب:

لا كبت حاسداً وأرى عدواً

هو من الكبد والرثة واللام متعلقة بقوله: ولقد نصركم الله، أو بقوله: وما النصر إلا من عند الله.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿١٤٢﴾.

«أو يتوب» عطف على ما قبله. «وليس لك من الأمر شيء» اعتراض. والمعنى: أن الله مالك أمرهم فيما يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن يتوب، منصوب بإضمار أن، وأن يتوب في حكم اسم معطوف بـ «أو» على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل: أو بمعنى إلا أن، كقولك: لألزمك أو تعطيني حق، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم

= الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين، وعندهم: أن المؤمن التائب من كفره، هو: المعنى في قولهم: «يغفر لمن يشاء» كما قاله الزمخشري، وأما تسلفه من ذلك على تميم هذا الحكم، وتعديته إلى الموحدين، فمن التعامى والتصام حقيقة، وإلا فهو أحق من ذلك، وأما نسبته إلى أهل السنة: التعامى، والتصام، والهوى، والبدعة، والافتراء، فالله حسبي في ذلك والسلام.

(4) سورة آل عمران، الآية: 128.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 291/5 الحديث رقم: (9649)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: المجن ومن يترس بترس صاحبه الحديث رقم: (2903)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد الحديث رقم: (4618).

(3) قال أحمد: هذه الآية واردة في الكفار، ومعتقد أهل السنة: أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر، والرجوع إلى

أمتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»⁽⁵⁾. ﴿والله يحب المحسنين﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء.

وَالَّذِينَ إِذَا مَسَّوْا فَجِئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿والذين﴾ عطف على المتقين أي: أعدت للمتقين وللمتائبين. وقوله: أولئك، إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك. ﴿فأحاشة﴾ فعلة متزايدة القبح، ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أو أنبأوا أي نذب كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة. ﴿ذكروا الله﴾ تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين⁽⁶⁾. ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وإنه لا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه، وإن عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتوصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو⁽⁷⁾ والتجاوز، وفيه تطيب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنه وحده معه مصحات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿ولم يصروا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»⁽⁸⁾. وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»⁽⁹⁾. ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فعل الإصرار، وحرف النفي من نصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها؛ لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح، وفي هذه الآيات بيان قاطع أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرون، وأن الجنة للمتقين والثائبين منهم بون المصريين⁽¹⁰⁾، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنِّتْ عَنْهَا السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو، وقرأ الباقون بالواو، وتنصره قراءة أبي وعبد الله؛ وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يستحقان به. ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأسطه، وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: بطاننها من إستبرق. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبح سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض.

الَّذِينَ يُغْفِرُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْعُسْرَاءِ وَالْكَلْبِطَيْنِ وَالْمَافِئِينَ عَنِ النَّكَّائِينَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿في السراء والعسراء﴾ في حال الرخاء واليسر، وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة. وعن عائشة رضي الله عنها: أنها تصدقت بحبة عنب⁽¹⁾، أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة لا تمنعهم حال فرح وسرور ولا حال محنة وبلاد من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وألّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشدّ فاهها، وكظم البعير إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أن خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء⁽³⁾. ﴿والعافين عن الناس﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه، وروي: ينادي منار يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا⁽⁴⁾. وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي ﷺ: «إن هؤلاء في

(1) قال الزليعي أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن رنجويه في كتابه: الأموال، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب: الأئمة.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً الحديث رقم: (4777)، وأحمد في المسند 438/3.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8313).

(4) الديلمي في مسند الفردوس. والثعالبي في تفسيره.

(5) لم يخرج الزليعي.

(6) لعله: عازمين على عدم العود.

(7) أما سماعاً، فباتفاق، وأما عقلاً، فعند المعتزلة فقط.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار الحديث رقم: (1514)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (107) الحديث رقم: (3559).

(9) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 10238).

(10) يعني: أن الإصرار كبيرة، وفاعل الكبيرة يخلد في النار، لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة؛ لأنه مؤمن عندهم، والمؤمن لا يخلد فيها، وتحقيقه في علم التوحيد.

أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَيُمْ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٦﴾

قال: ﴿أجر العاملين﴾ بعد قوله: جزاؤهم، لانهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون⁽¹⁾. وروى: أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: ما أقل حياء من يطعم في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل نذب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة: «جزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم». وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تتشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات.

قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنٌّ قَبِيرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عِقَابَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧٧﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائع كقوله: ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾ سنة الله في الذين خلوا من قبل⁽²⁾ ﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل⁽³⁾.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعني: أنه مع كونه بياناً وتنبهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قد خلت﴾، جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما نكر من أجر العاملين. ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾، إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصريين.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي:

لا يورثكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح. ﴿وانتم الاعلون﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وانتم الاعلون شأناً لأن قتالكم لله وإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتلاكهم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وانتم الاعلون في العاقبة ﴿وان جنودنا لهم الغالبون﴾⁽⁴⁾ ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهي، بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالاعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

إِنْ يَسْأَلْكُمْ فَرِحَ فَقَدِ مَسَّ الْقَوْمَ فَرِحَ مِنْهُ وَتَكَ الْأَيَّامُ
نُدَّوْلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَسْلَمَ اللَّهُ الْأَرْبَابَ وَأَمَّا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٨٠﴾

وقرىء: قرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم المها. وقرأ أبو السمال: قرح بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرده، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منه قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتهم بالقتال فانتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: ﴿فإنهم ياليمون كما تاليمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾⁽⁵⁾ وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿قرح مثله﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾⁽⁶⁾ ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ، والأيام صفة، ﴿ونداولها﴾ خبره. ويجوز أن يكون تلك الأيام مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها نصرها بين الناس. ندبل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا فيوماً نساء ويوماً نسر
ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وما أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام نول والحرب سجال. فقال عمر

(1) يريد بهم: أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان: 61 - 62.

(3) سورة الفتح، الآيتان: 22 - 23.

(4) سورة الصافات، الآية: 173.

(5) سورة النساء، الآية: 104.

(6) سورة آل عمران، الآية: 152.

بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه، لأنه منتف بانتفاؤه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع، فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد ولم يفعل وأنا أتوقع فعله. وقرئ: ولما يعلم الله بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها. **﴿ويعلم الصابرين﴾** نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: ويعلم بالرفع، على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظْرُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ خوطب به الذين لم يشهوا برباً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيروا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر وهم الذين الحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شنته وصعوبة مقاساته، **﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾** أي: رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده.

فإن قلت: كيف يجوز تمنى الشهادة وفي تمنيتها تمنى غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد تمنى الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة وإحسان إلى عدو الله وتفتيقاً لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رباح رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له: ربكم الله:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرع تقذف للزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جنثي أرشدك الله من غاز وقد رشدنا

رضي الله عنه: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال: إنكم تزعمون نلك فقد خبنا إنن وخسرنا والمدولة مثل المعاورة⁽¹⁾. وقال:

يرد الميابه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثل وسماع
يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه. **﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾** فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محذوفاً، معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا نلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فانه عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات.

والثاني: أن تكون العلة محذوفة وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا نلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله؛ وإنما حذف لإيدان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أن العبد يسوء ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أن الله في نلك من المصالح ما هو غافل عنه. **﴿ويتخذ منكم شهداء﴾** وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهادين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبئلي به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾**⁽²⁾ **﴿والله لا يحب الظالمين﴾** اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله المحمصين، من الذنوب.

وَلِمَجِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَيِّقَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٨﴾

والتمحيص: التطهير والتصفية. **﴿ويمحق الكافرين﴾** ويهلكهم، يعني: إن كانت البولة على المؤمنين فللتمييز، والاستنهاد والتمحيص وغير نلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْعَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاتِرِينَ ﴿٤٩﴾

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. **﴿ولما يعلم الله﴾** بمعنى⁽³⁾. ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/297.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، خاص بعلم الله تعالى؛ لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء، ما عدم نلك الشيء ضرورة، أنه لا يعزب عن علمه شيء لعدم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء، بنفي تعلق العلم القديم، بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء تعلق علم الخلق به، لجواز وجود نلك الشيء غير معلوم للخلق، والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير =

= مطلقاً، ويعتقد الملازمة المنكورة عامة، فلنلك قال في قول فرعون: **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾** أنه عبر عن نفي المعلوم، بنفي العلم؛ لأنه من لوازمه، وسياتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثل اعتقاد، والله أعلم، وإنما عبر فرعون بذلك تلبساً على ملته، وتتميماً لدعوى الوهية الكائنة، بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواءه على دعواه، لتعلق علمه به، وهذا يعد من حماقات فرعون، ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

البصيرة، ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعداء: الإديار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد وما ارتد أحد من المعلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، يجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ وإسلامه. ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع. ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ الذين لم ينقلبوا، كانس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن حوَّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني نكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهضةً للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل، ﴿كتاباً﴾ مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿موجلاً﴾ موقئاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾ تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نوَّته منها﴾ أي من ثوابها، ﴿وسنجزي﴾ الجزء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد، وقرئ: يؤته وسيجزي بالياء فيها.

قرئ: قاتل وقتل بالتشديد، والفاعل ربيون أو ضمير النبي، و﴿معه ربيون﴾ حال عنه بمعنى: كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول. وعن سعيد بن جبيرة رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحرركات الثلاث: فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرئ: فما وهنوا بكسر الهاء، والمعنى: ﴿فما وهنوا﴾ عند قتل النبي، ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد بعده، ﴿وما استكانوا﴾ للعدو وهذا تعريض مما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ! ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا وَضُرَّحْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبيل يريد قتله، فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا أن محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان. ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: إلي عباد الله، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بأبائنا وأمهاتنا، اتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مديرين، فنزلت، وروي أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، أرجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال انس بن النضر عم انس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين أنه مر بآنصاري يتشطح في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَإِذَا نُنِيَ مَا تَزُكَّرُ أَنْقَلَبْتُمْ عَنْ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ كُنْزاً مُؤْتِئاً وَمَنْ يَرِدْ تَوَابَ اللَّهِ تَوَاباً مِنْهُ وَمَنْ يَرِدْ تَوَابَ الْآخِرَةِ تَوَاباً مِنْهُ وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿٧٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لَمَّا أَحْسَبُوا فِي سَيْبِ اللَّهِ وَمَا سَمِعُوا وَمَا اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْعَاقِبِينَ ﴿٨٠﴾.

والمعنى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن اتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه⁽¹⁾؛ لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿إفان مات﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسيب، والهجرة لإنكار أن يجعلوا خلوا الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه يموت أو قتل، مع علمهم أن خلوا الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجزواً عند المخاطبين.

فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾⁽²⁾. قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم نوي

الرب في قلوبهم فأمسكوا. ﴿بِمَا اشْرَكُوا﴾ بسبب إشراكهم أي: كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به. ﴿لَمَّا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾: كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك! **قُلْتُمْ**: لم يعن أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله: ولا ترى الضب بها ينحجر.

وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَصَعَبْتُمْ مِنْ بَدِيءِ مَا أَرْسَلْنَا مَا نُجَبِّرُ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ سَرَّكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ⁽²⁾.

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وعدمه الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم﴾⁽²⁾ ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾⁽³⁾ فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت. وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا كانت الدولة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقيون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

يحسونهم أي: يقتلونهم قتلاً ذريعاً. حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا. وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة، وهم المعنيون بقوله: ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ ونفر أعقابهم ينهبون وهم الذين أرادوا الدنيا. فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صبا حتى هزمهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ليبتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها. ﴿ولقد عفا عنكم﴾ لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر

تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع وأقرب إلى الاستجابة.

فَقَاتِلَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ تَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ جُودٌ الْكَافِرِينَ⁽⁴⁾.

﴿فاتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصر والغنمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عنده، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة.

يَتَابَهَا الَّذِينَ آسَأُوا إِنْ تُلِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِرُكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنَلِبُوا حَسْرِينَ⁽⁵⁾.

﴿إن طليعوا الذين كفروا﴾ قال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في بينهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إن تستنصحو اليهود والنصارى وتقبلوا منهم؛ لأنهم كانوا يستغفونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستامسوهم ﴿يرتوكم﴾ إلى بينهم، وقيل: هو عام في جميع الكفار وإن على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء، ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم.

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ⁽⁶⁾.

﴿بل الله مولاكم﴾ أي: ناصركم لا تحتاجون معه إلى نصره أحد وولايته. وقرئ بالنصب على بل أطيعوا الله مولاكم.

سَكَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرْعَبَ بِمَا أَشْرَكُوا يَا اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتَلِ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا أُنْزِلُ الْكَافِرَ وَمَتَى الْفَالِيبِينَ⁽⁷⁾.

﴿سنلقي﴾ قرئ بالنون والياء. ﴿والرعب﴾ بسكون العين وضمها، قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن فاهرون ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله

(1) حمله على معنى لا منار فيه، فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: على لاحب لا يهتدي فيه بمنار مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 125.

(3) سورة آل عمران، الآية: 151.

على لاحب لا يهتدي بمناره = فإنه بإضافة المنار إليه، يوم أن فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى

وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٤﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٨﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ فَرَقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾

وانزل الله الامن على المؤمنين وازال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبيهم النوم. وعن ابي طلحة رضي الله عنه: غشينا النعاس ونحن في مصافنا فكان السيف يسقط من يد احدا فياخذه ثم يسقط فياخذه، وما احد إلا ويميل تحت جحفته⁽²⁾ وعن ابن الزبير رضي الله عنه: لقد رايتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف فارسل الله علينا النوم، والله اني لاسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا⁽³⁾.

والامنة: الامن، وقرىء: امنة بسكون الميم، كأنها المرة من الامن. **«نعاساً»** بدل من امنة، ويجوز ان يكون هو المفعول، وامنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رايت راكباً رجلاً، او مفعولاً له بمعنى: نعستم امنة، ويجوز ان يكون حالاً من المخاطبين بمعنى نوي امنة، او على انه جمع آمن كبار وبررة. **«يغشى»** قرىء: بالياء والتاء، رداً على النعاس او على الامنة. **«طائفة منكم»** هم اهل الصدق واليقين، **«وطائفة»** هم المنافقون **«قد اهتمهم انفسهم»** ما بهم إلا هم انفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، او قد اوقعتهم انفسهم وما حل بهم من الهموم والاشجان فهم في التشاكي والتبائك. **«غير الحق»** في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب ان يظن به، **«وظن الجاهلية»** بدل منه. ويجوز ان يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية وغير الحق تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك، وظن الجاهلية كقولك: حاتم الجود ورجل صدق، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز ان يراد ظن اهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا اهل الشرك الجاهلون بالله. **«يقولون»** لرسول الله ﷺ يسألونه **«هل لنا من الامر من شيء»** معناه: هل لنا معاشر المسلمين من امر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو. **«قل إن الامر كله لله»** ولأوليائه المؤمنين، وهو النصر والغلبة **«كتب الله لاغلبن انا ورسلي»**⁽⁴⁾ **«وان جننا لهم الغالبون»**⁽⁵⁾. **«يخفون في انفسهم ما لا يبديون لك»** معناه: يقولون لك فيما يظهر: هل لنا من الامر من

رسول الله ﷺ، **«واش نوافل على المؤمنين»** يتفضل عليهم بالعرف، او هو متفضل عليهم في جميع الاحوال سواء انيل لهم او انيل عليهم؛ لان الابتلاء رحمة كما ان النصر رحمة.

فإن قلت: اين متعلق حتى إذا قلت: محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز ان يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَعْدَاءِكُمْ وَلَا تَقُولُونَ لِمَا أَهْرَبْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرُونَ﴾ (١) **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾** نصب بصرفكم، او بقوله: **﴿ليبتليكم﴾**⁽¹⁾ او بإضمار انكر.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ ولا تلوون على اعداءكم ولا تقولون لِمَا أَهْرَبْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرُونَ

والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني: في الجبل. وتعصد الأولى قراءة أبي: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوية: تصعدون بفتح التاء وتشديد العين من تصعد في السلم. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون بواو واحدة، وقد نكرنا وجهها. وقرىء: يصعدون ويلون بالياء. **﴿والرسول يدعوكم﴾** كان يقول: إلي عباد الله إلي عباد الله أنا رسول الله من يكرهه الجنة. **﴿في آخركم﴾** في ساقتمكم وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جثت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى. **﴿فأنا بكم﴾** عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله **﴿غماً﴾** حين صرفكم عنهم وابتلاككم **﴿بسبب غم﴾** أنقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، **﴿لئكيلا تحزنوا﴾**، لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز ان يكون الضمير في فائتكم من رسول أي: فأساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم فائتكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله. ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لثلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّاسًا يَنصِبُونَ عَلَيْكُمْ رُكُوعًا﴾

(1) سورة آل عمران، الآية: 152. = والبراز في مستديهما، والزليعي 1/233.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: «امنة نعاساً»

الحديث رقم: (4562).

(3) أخرجه البيهقي وابو نعيم في دلائل النبوة، وإسحاق بن راهويه =

شيء؟ سؤال المؤمنين المسترشدين، وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم: **أَنْ أَمْرُ كُلِّهِ شَيْءٌ** **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** أي: لو كان الأمر كما قال محمد **أَنْ أَمْرُ كُلِّهِ شَيْءٌ** ولأوليائه وأئمة الغالبين لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. **قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ** يعني: من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم **لَبُرَزَ** من بينكم **الَّذِينَ** علم الله أنهم يقتلون **إِلَىٰ مُضَاجِعِهِمْ** وهي مصارعهم، ليكون ما علم الله **تَهُ** يكون. والمعنى: **أَنَّ** الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه **أَنَّ** العاقبة هي الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأز ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه: هل لنا من التدبير من شيء، يعنون: لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرج كما كان رأي عبد الله بن أبي وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة. قل: **إِنَّ** التدبير كله لله، يريد **أَنَّ** الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم وقرئ: كتب عليهم القتال وكتب عليهم القتل على انبناء للفاعل، ولبرز بالتشديد وضم الباء، **وَلِيُبَيِّنَ لِيَكُونَ** الله وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة للابتلاء والتمحيص.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ مَوَاقِعَ الْجَمَلِ الَّتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَمَا نَخِفُ»؟ قُلْتُمْ: قَدْ أَهَمَّتْهُمْ صِفَةٌ لَطَائِفَةٌ، وَيُظَنُّونَ صِفَةً أُخْرَىٰ أَوْ حَالٍ يَمَعْنَىٰ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظَانِّينَ، أَوْ اسْتِثْنَاءً عَلَىٰ وَجْهِ الْبَيَانِ لِلْجَمَلَةِ قَبْلَهَا، وَيَقُولُونَ بَدَلٍ مِنْ يُظَنُّونَ

= يفسد فيها، فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار، بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد، وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

(2) سورة السائدة، الآية: 15.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: **«اتَّجِعَلْ فِيهَا مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»** الآية، فإن هذا السؤال استفهام والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصلوق، ونقيضه ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم أنبؤني باسماء هؤلاء إن كنتم صائقين، يعني في قولكم اتجعل فيها من

خالفوه وعصوا أمره وانهمزوا وتركوه. ﴿ولو كنت فظاً﴾
جانياً ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾
لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم. ﴿فاعف
عنهم﴾ فيما يختص بك، ﴿واستغفر لهم﴾ فيما يختص
بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾
يعني: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي،
لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من
أقدارهم. وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: قد علم الله أنه
ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده. وعن
النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «ما تشاور قوم
قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»⁽⁵⁾. وعن أبي هريرة رضي الله
عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب
الرسول ﷺ⁽⁶⁾. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في
الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه
لئلا ينقل عليهم استبداده بالرأي دونهم. وقرئ: وشاورهم
في بعض الأمر، ﴿فإذا عزمتم﴾ فإذا قطعت الرأي على
شيء بعد الشورى، ﴿فتوكل على الله﴾ في إمضاء أمرك
على الأرشد الأصلح؛ فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله،
لا أنت ولا من تشاور. وقرئ: فإذا عزمتم بضم التاء،
بمعنى: فإذا عزمتم لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل على
ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر، فلا أحد
يغلبكم. ﴿وإن يخذلكم﴾ كما خذلكم يوم أحد، ﴿فمن ذا
الذي ينصركم﴾. فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى
وجوب التوكل عليه، ونحوه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة
فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾⁽⁷⁾
﴿من بعده﴾ من بعد خذلانه، أو هو من قولك: ليس لك
من يحسن إليك من بعد فلان، تريد إذا جاوزته. وقرأ
عبيد بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذله إذا جعله مخذولاً.
وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله
تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به
العقوبة بالخذلان. ﴿وعلى الله﴾ وليخص المؤمنون ربهم
بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن
إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلُّ وَمَنْ يَكُلُّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ
كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾ أَمَّنْ أَنْتُمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ

الصدور فعل الله عز وجل، كقوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً
حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون ذلك
إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم
ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأن
مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضانتهم مما يفهم
ويغنيظهم. ﴿والله يحيي ويميت﴾ رد لقولهم، أي: الأمر
بيده قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد كما
يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند
موته: ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وما أنا
ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء⁽²⁾. ﴿والله
بما تعملون بصير﴾ فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء،
يعني: الذين كفروا.

وَلَكِنْ قِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُمْرٌ لَمَعْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ حَيْرٌ
مِمَّا يَحْمَمُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿المغفرة﴾ جواب القسم وهو ساء مسد جواب
الشرط، وكذلك ﴿إلى الله تحشرون﴾⁽³⁾، كذب الكافرين أولاً
في زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان
بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب
التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: لئن تم عليكم ما تخافونه
من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله فإن ما تنالونه من
المغفرة والرحمة بالموت ﴿في سبيل الله خير مما
تجمعون﴾ من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن
عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذهب
حمراء وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار.

وَلَكِنْ مُمْرٌ أَوْ قِيلَتْ لِيَلَى اللَّهُ حَشْرُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿إلى الله تحشرون﴾ إلى الرحيم الواسع الرحمة
المثيب العظيم الثواب تحشرون، ولوقوع اسم الله تعالى
هذا الموقع مع تقديمه. وإنخال اللام على الحرف المتصل
به شأن ليس بالخفي. وقرئ: تم بضم الميم وكسرها، من
مات يموت، ومات يمات.

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَكَوْنَتْ فَلَظًا غَلِيظًا الْقَلْبِ لَأَنْتَضُوا
مِنْ حَوْلِكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٧٨﴾

ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا
برحمة من الله، ونحوه: ﴿فيما نقصهم ميثاقهم لعناهم﴾⁽⁴⁾.
ومعنى الرحمة: ربطه على جائسه وتوفيقه المرفق
والتلطف بهم، حتى اثابهم غماً بغم، وأساهم بالمباينة بعد ما

(6) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 331/5 الحديث رقم: (9720)،

والترمذي تعليقا، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في المشورة، وابن
حبان في كتاب: السير، باب: المواعدة والمهادنة الحديث رقم:
(4872).

(1) سورة الانعام، الآية: 125.

(2) [راجع البداية والنهاية لابن كثير 7/126].

(3) سورة آل عمران، الآية: 158.

(4) سورة المائدة، الآية: 13.

(5) [قال الزيلعي غريب، لم أجده إلا من قول الحسن 1/234]. = (7) سورة فاطر، الآية: 2.

كَمْ بَاءٍ يَسْحَطُونَ مِنَ اللَّهِ وَمَا يُنَبِّئُهُمْ بِهَذَا الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ .

يقال: غلّ شيئاً من المنعم غللاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خفية، يقال: أغلّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغلّ الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»⁽¹⁾. وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول»⁽²⁾، وعنه: «ليس على المستعير غير المغلّ ضمان»⁽³⁾، وعنه: «لا إغلال ولا إسلال»⁽⁴⁾. ويقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأقحمته، ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلَ﴾ وما صحّ له ذلك، يعني: أنّ النبوة تنافي الغلول. وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأول، لأنّ معناه: وما صحّ له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان⁽⁵⁾:

أحدهما: أن يبرأ رسول الله ﷺ من ذلك وينزهه وينبهه على عصمته بأنّ النبوة والغلول متنافيان لثلاث يظن به ظان شيئاً منه وأن لا يستريب به أحد، كما روي: أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلّ رسول الله ﷺ أخذها⁽⁶⁾. وروي: أنّها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، وأنّ لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر. فقال لهم النبي ﷺ: «الم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم».

والثاني: أن يكون مبالغاً في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنّه بعث طلائع فغنمت غنائم، فقسمها ولم يقسم للطلائع⁽⁷⁾. فنزلت: يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غللاً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر. ولو قرئ: أن يغلّ من أغلّ، بمعنى: غلّ، لجاز: ﴿يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله، كما جاء

في الحديث: جاء يوم القيامة يحمله على عنقه⁽⁸⁾. وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وببشاة لها ثغاء، فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك»⁽⁹⁾. وعن بعض جفاة الأعراب: أنّه سرق ناقة مسك فتليت عليه الآية، فقال: إذا أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل. ويجوز أن يراد: يأت بما احتمل من وباله وتبعته ورائمه.

فإن قلت: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به! قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت لأنّه إذا علم الغال أنّ كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه علم أنّه غير متخلص من بينهم من عظم ما اكتسب. ﴿وَهُمْ لَا يظلمون﴾ أي: يعدل بينهم في الجزاء كل جزأه على قدر كسبه.

هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ .

﴿هم درجات﴾ أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، كقوله:

أنصب للمنية تعزيرهم رجالى أم همودرج السيول
وقيل: نوو درجات، والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم
ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. ﴿وَاللَّهُ
بصير بما يعملون﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم
على حسبها.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ وَيُخَلِّصُهُمُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا
مِن قَبْلُ لَيِّنَ صَلَاحٍ مُّبِينٍ ﴿١١٨﴾ .

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه. ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسماعيل كما أنّهم من ولده.

= أن تكون له أسرى ﴿ما كان لنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ إلى غير ذلك على أنّ الزمخشري حاف في العبارة، إذ يقول عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً، وتقبيحاً، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله الله ﷺ في التاديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف، والتعطف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أنتت لهم﴾ قال بعض العلماء: بدأه بالعفو قبل العتب، ولو لم يبداه بالعفو، لانفطر قلبه ﷺ.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (3009)، والواحد في أسباب النزول ص 73.

(7) أخرجه الواحد في أسباب النزول، ص 73-74. وابن أبي شيبة في 12/413، كتاب: الجهاد، باب: ليس له شيء إذا قدم بعد الوقعة.

(8) ذكره السيوطي في الدر المنثور (92/2) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (135/2).

(9) أخرجه الطبري في تفسيره، وأبو يعلى الموصلي.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في عمال الصدقة الحديث رقم: (1810)، والحديث عن أبي حميد الساعدي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة، باب: من لم يقبل الهدية لعة الحديث رقم: (2597) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال الحديث رقم: (4715).

(2) كشف الاستار، كتاب: الإمارة، باب: في هدايا العمال الحديث رقم: (1599)، وحديث جابر، أخرجه عبد الرزاق في المصنف 147/8 الحديث رقم: (14665).

(3) أخرجه البيهقي في سننه في كتاب: العارية.

(4) أخرجه الدارمي في السنن 2/303، كتاب: السير، باب: في الغال إذا جاء بما غل به، حديث رقم: (2491)، وأحمد في المسند 4/325، وأبو داود في السنن، كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو، الحديث رقم: (2766).

(5) قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له، ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي، في أمثال قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي =

أتى لك هذا؟ لقوله: ﴿من عند أنفسكم﴾ ، وقوله: ﴿من عند الله﴾ والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم عن المركز. وعن علي رضي الله عنه: لأخذكم الغداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيبكم تارة ويصيب منكم أخرى.

وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ التَّنَجُّ الْجَمَّانِ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾

﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين، ﴿فهو﴾ هو كائن ﴿بإذن الله﴾ ، أي: بتخليته استعارة الإذن لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم لأن الأذن محل بين المانن له ومراده

وَلِعَلَّ الَّذِينَ نَافَرُوا وَيَلَّوْا فَمَنْ تَنَافَرُوا فَتَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعَلَّمْ فَتَالَا لَأَنفَعَنَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وليعلم﴾ وهو كائن لتمييز المؤمنين والمنافقون ولينظر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. ﴿وقيل لهم﴾ من جملة الصلة عطف على نفاقوا؛ وإنما لم يقل: فقالوا، لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال. كأنه قيل: فماذا قالوا لهم؟ فقيل: قالوا لو نعلم. ويجوز أن تقتصر الصلة على نفاقوا، ويكون ﴿وقيل لهم﴾ لهم كلاماً مبتدأ، قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للأخرة كما يقاتل المؤمنون وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الأخرة نفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فابوا القتال وجدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم. ونلك ما روي: أن عبد الله بن أبي انخزل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين، وإن لم تقاتلوا لأن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره: لو أمكنتني لبعث داري ولحقت بشعر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال: لقوله: أو ادافعوا، أراد: كثروا سوادهم، ووجه آخر: وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿لا تبغناكم﴾ ، يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللهم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأن رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج. ﴿هم﴾ للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعني: أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة تؤذن بكفرهم، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن

فإن قلت: فما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم! قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وإنه لنكر لك ولقومك﴾^(١). وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة رضي الله عنها من أنفسهم، أي: من أشرفهم. لأن عدنان نروة ولد إسماعيل، ومضر نروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف نروة مضر، ومدركة نروة خندف، وقريش نروة مدركة، وذروة قريش محمد ﷺ. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من نرية إبراهيم وزرع إسماعيل ووضئى معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به وهو والله بعد هذا له نبا عظيم وخطر جليل. وقرئ: لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم، وفيه وجهان: أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم فحنف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه. ﴿بتلو عليهم آياته﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿ويزيكهم﴾ ويظهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بلباسه المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبدهم من دراسة العلوم. ﴿وإن كانوا من قبل﴾ من قبل بعثة الرسول ﴿لفي ضلال﴾، إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال ﴿مبين﴾ ظاهر لا شبهة فيه.

أَوْ لَمَّا أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا مَدَّأ قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٨﴾

﴿أصابكم مصيبة﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. ولما نصب بـ ﴿قلتم﴾ و﴿أصابكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقتلتم حين أصابكم و﴿إنى هذا﴾ نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقرير.

فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: ولقد صدقكم الله وعده، ويجوز أن تكون معطوفة على محنوف، كأنه قيل: أقتلتم كذا وأقتلتم حينئذ كذا، أتى هذا من أين هذا؟ كقوله تعالى:

في مقاتلتكم وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. وجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني: أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: فادروا عن أنفسكم الموت: استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت فادروا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزِقُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿ولا تحسبن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرئ: بالياء على ولا يحسبن رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبن حاسب، ويجوز أن يكون ﴿الذين قتلوا﴾ فاعلاً ويكون التقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً.

فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ محذوف كما حذف المبتدأ في قوله: ﴿أحياء﴾، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرئ: ولا تحسبن بفتح السين، وقلوا بالتشديد، وأحياء بالنصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، ﴿عند ربهم﴾ مقربون عنده نون زلفى، كقوله: ﴿فالذين عند ربك﴾ (2) ﴿يرزقون﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التعمم برزق الله.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقرين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش» (3) ﴿ويستبشرون ب﴾ إخوانهم المجاهدين ﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾ أي: لم يقتلوا فليحقوق بهم. ﴿من خلفهم﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم

تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين. ﴿يقولون بأفواههم﴾ لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم، ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، ونكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أفواههم. معلوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأفواههم: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملًا بأمارات وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته.

الَّذِينَ قَالُوا لِيُؤْتِينَا اللَّهُ مِمَّا رَزَقَنَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَفَرَأَوْا عَنَّا شَيْئًا أَمْ لَمْ نَلْمُوهُمْ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿الذين قالوا﴾ في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذم أو على الرد على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجزوراً بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم، كقوله: على جوده لضم بالماء حاتم. ﴿إخوانهم﴾ لأجل إخوانهم، من جسد المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار. ﴿وقعدوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل. ﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني: أن ذلك الدفع غير مغن عنكم لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه الميثوثة ولا يد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

فإن قلت (1): فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يديركم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون

(1) قال أحمد: السؤال المذكور إنما يرد على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأن المقتول لو لا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أن الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل، بتوفي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور، وأما أهل السنة فمعتقدم أن كل ميت بأجله يموت، ويقولون إن الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأن ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل إيماناً، بقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، وخلافاً للمنافقين، وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا، ولعمري إنهم في هذا

(2) سورة فصلت، الآية: 38.
(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، الحديث رقم: (2520)، والحاكم في المستدرک 2/88، ومسلم عن ابن مسعود في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون الحديث رقم: (4862).

ومنزلتهم. ﴿الْأَخْوَفُ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الذين، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. وفي نكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم وإحسان لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٧).

وكرر ﴿يستبشرون﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿الآخْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)، من نكر النعمة والفضل وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع. وقرئ: وأن الله بالفتح عطفاً على النعمة والفضل، وبالكسر على الابتداء وعلى أن الجملة اعتراض وهي قراءة الكسائي، وتعنيها قراءة عبد الله: والله لا يضيع.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٧).

﴿الذين استجابوا﴾ مبتدأ خبره للذين أحسنوا، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريه من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا يخرج معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت^(٢). و﴿ومن﴾ في ﴿الذين أحسنوا منهم﴾ للتبيين مثلها في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾^(٣)، لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة رضي الله عنها: إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول، تعني: أبا بكر والزبير^(٤).

﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَرِعْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧٧).

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ روي: أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقبال إن شئت. فقال النبي ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران، فالتقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً، فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جلب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده نلك جراءة، فالحق بالمدينة فنبطهم ولك عندي عشر من الإبل. فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد افتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فواش لا يفلت منكم أحد^(٥). وقيل: مرّ بابي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة، فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين ركباً وهم يقولون: حسينا الله ونعم الوكيل. وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار. حتى وافوا بدرأ وأقاموا بها ثمانين ليلال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا: إننا خرجتم لتشربوا السويق، فالناس الأولون المثبطون والآخرين أبو سفيان وأصحابه^(٦).

﴿فإن قلت: كيف قيل الناس إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس وأحد ويرد فرد، أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضمونه ويصلون جناح كلامه ويثبطون مثل تثبيطه.

﴿فإن قلت: إلام يرجع المستكن في ﴿فزادهم﴾؟ قلت: لما إلى المقول الذي هو ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فآخشوه﴾. كانه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له، أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده.

﴿فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله، وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة،

(1) سورة آل عمران، الآية: 170.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وابن إسحاق والزبيعي 1/244، ونكره ابن هشام في السيرة 2/121.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: «الذين»

= استجابوا لله ورسوله، الحديث رقم: (4077)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير الحديث رقم: (6199).

(5) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(6) أخرجه ابن سعد في الطبقات. زبيعي 1/246.

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يُعْرِضُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْمَلَ لَهُمْ حَقًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾.

﴿يسارعون في الكفر﴾ يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشد رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام.

فَأَنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿ولا يحزنك﴾، ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً﴾ يعني: إنهم لا يضررون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وبال تلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي: نصيباً من الثواب، ﴿ولهم﴾ بدل الثواب ﴿عذاب عظيم﴾، وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه.

فَأَنْ قُلْتَ: هلا قيل لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأي فائدة في نكر الإرداء؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تمايهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه حتى أن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم.

إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿إن الذين اشتركوا الكفر بالإيمان﴾ إما أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإما أن يكون عاماً للكفار والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الإسلام أو على العكس. و﴿شيئاً﴾ نصب على المصدر، لأن المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر.

وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تَمَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تَمَلَّى لَهُمْ لِيُرَادُوا إِسْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالتاء نصب، و﴿إنما تملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل منه، أي: ولا تحسبن أن ما تملي للكافرين خير لهم، وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أم تحسبن أن أكثرهم يسمعون﴾ (5) وما مصدرية بمعنى: ولا تحسبن أن إملأنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف صح مجيء البديل ولم يذكر إلا أحد

والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (1). وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزيد إيماناً (2). وعنه: لو دُنَّ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به (3). ﴿حسبنا الله﴾ محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه، والدليل على أنه بمعنى المحسب، أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصرف به النكرة لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة. ﴿ونعم الوكيل﴾ ونعم الموكول إليه هو.

فَأَنْقَلِبُوا يَنْعَمُونَ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلْ لَمْ يَسَسِّمْ سُوًى وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾.

﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بنعمة من الله﴾ وهي السلامة وحذر العدو منهم، ﴿وفضل﴾ هو الربح في التجارة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ (4) ﴿لم يمسسهم سوء﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ بجرأتهم وخروجهم. ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسیر لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروي: أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

إِنَّ ذَلِكَ لَكُنْ عِلَّةٌ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُمْ فَلَا تَعَاوَنُوا مَعَهُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿الشیطان﴾ خبر نلكم بمعنى إنما نلكم المثبط هو الشيطان، ويخوف أوليائه: جملة مستأنفة بيان لشيئته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوف الخير، والمراد بالشیطان نعيم أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى: إنما نلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله. ﴿يخوف أوليائه﴾ يخوفكم أوليائه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوفكم أوليائه، وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوف أوليائه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ.

فَأَنْ قُلْتَ: فلأم رجح الضمير في ﴿فلا تخافوهم﴾ على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس في قوله: إن الناس قد جمعوا لكم فلا تخافوهم فتقعوا عن القتال وتجنبوا. ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحداً إلا الله.

(1) الثعلبي في تفسيره [الزليعي 2471].

(3) أخرجه البيهقي في الشعب 69/1، الحديث رقم: (36).

(4) سورة البقرة، الآية: 198.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

(2) البيهقي في شعب الإيمان، باب: القول في زيادة الإيمان

ونقصاته... الحديث رقم: (38).

من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أمان بمعنى ميز.

فَأَنْ قُلْتَ: لمن الخطاب في أنتم؟ قلت: للمصدقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضهم ببعض، وأنه لا يعرف جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر إنّه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ الرَّسُولَ فَيُوحِي إِلَيْهِ وَيُخْبِرُهُ بَأَنَّ فِي الْغَيْبِ كَذَا وَأَنَّ فَلاناً فِي قَلْبِهِ النِّفَاقَ وَفَلاناً فِي قَلْبِهِ الْإِخْلَاصَ، فَيُعَلِّمُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِ اللَّهِ لَا مِنْ جِهَةِ إِطْلَاعِهِ عَلَى الْمَغْيِبَاتِ. ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلفين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله قلوبهم، كذلك الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهدًا بضمائرهم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والإطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صاحبها من فاسدها مطلعاً عليها. ولكن الله ﴿يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخبره ببعض المغيبات، ﴿فَأَمَّنُوا بِاللهِ وَأَرْسَلَهُ﴾ بأن تقدره حق قدره وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِمَنْ بَلَ وَهُوَ سَرٌّ لِمَنْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ، يَوْمَ الصَّعْتِ وَاللَّهُ وَبَرٌّ أَلْسَمُونَ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٥﴾.

﴿ولا تحسبن﴾ من قرأ بالباء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء. وجل فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأوّل عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ والذي سوغ حذفه دلالة يبخلون عليه وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو. ﴿سيطوقون﴾ تفسير

المفعولين، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث إنّ التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدّر مضاف محذوف على ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أنّ الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أنّ الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع والفعل متعلق بأنّ وما في حيزه.

والإملاء لهم: تخليتهم وشأنهم مستعان من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبن أنّ الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع أجالهم. ﴿إنما نملي لهم﴾ ما هذه حقها أن تكتب متصلة لأنها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها. كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم: فقيل: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إنمًا﴾.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم؟ قلت: هو علة للإملاء وما كل علة بغرض، إلا تراك تقول: تعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك وإنمًا هي علل وأسباب، فكذاك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف يكون ازدياد الإثم علة للإمهال كما كان العجز علة للتعذر عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزادون إنمًا فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية: ولا يحسبن بالياء على معنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنّ إملائنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنمًا هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: إنمًا نملي لهم خير لأنفسهم اعتراض بين الفعل ومعموله، ومعناه أنّ إملائنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسيح المدة وترك المعالجة بالعقوبة.

فَأَنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿ولهم عذاب مهين﴾ على هذه القراءة؟ قلت: معناه ولا تحسبوا إن إملائنا لزيادة الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزدادوا إنمًا معداً لهم عذاب مهين.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمْتَحِنُ مِنْ رَسُولِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَّا بِلِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٥﴾.

اللام لتأكيد النفي على ﴿ما أنتم عليه﴾ من اختلاط المؤمنين الخالص والمنافقين، ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرئ: يميز

= ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعميل التزاماً، لإتمام الفاسد، وضرباً في حديد بار، فجعل ازدياد الإثم سبباً، وليس بغرض.

(١) قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على ﴿شفا جرف هار﴾؛ لأن معتقده أنّ الإثم الواقع منهم، ليس مراداً لله تعالى، بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما وردت الآية مشعرة بأنّ =

رضي الله عنه: نَقَّ عَقَقُ⁽⁶⁾. وقرأ حمزة: سيكتب بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال نوقوا.

ذَلِكَ بِمَا كَفَرْتُمْ أَتَيْكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّمَعْسِدٍ (٧٨).

﴿نلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم. ونكر الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاول بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

﴿فإن قلت﴾ فلم عطف قوله: **﴿وإن الله ليس بظلام للعبيد﴾** على ما **﴿قدّمتم إيديكم﴾**، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب! **﴿قلت﴾**: معنى كونه غير ظلام للعبيد: أنه عادل عليهم، ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُرْسِلُ رَسُولًا حَتَّىٰ يَأْتِنَا بُرْهَانٌ تَأْكُفُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ وَإِلَىٰ قُلُوبِكُمْ فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧٩).

﴿عهد إلينا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن برسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل ناراً من السماء فتاكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آياتهم كان يقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتتزل نار من السماء فتاكله، وهذه دعوى باطلة واقتراء على الله لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء، فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤوا بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق وجاؤهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم يقتلوهم إن كانوا صادقين إن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرئ: بقربان بضمّتين، ونظيره السلطان.

﴿فإن قلت﴾ ما معنى قوله: **﴿وبالذي قلتم﴾**؟ **﴿قلت﴾**: معناه وبمعنى الذي قلتموه من قولكم قربان تاكله النار، ومؤداه **﴿قوله﴾**: **﴿ثم يعيدون لما قالوا﴾** أي: لمعنى ما قالوا.

إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالرُّسُومِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٨٠).

في مصاحف أهل الشام: وبالزبير، وهي: الصحف، **﴿والكتاب المنير﴾** التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. وقرأ اليزيدي: ذائقة الموت، على الأصل. وقرأ الأعمش: ذائقة الموت، بطرح التنوين على النصب، كقوله:

ولا ذكر الله إلا قليلاً

لقوله: **﴿هو شر لهم﴾**، أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يطوق بشجاع أقرع»⁽¹⁾. وروي: «بشجاع أسود». وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار. **﴿ووه ميراث السموات والأرض﴾** أي: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: **﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾**⁽²⁾ وقرئ: بما تعملون بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعَّرٌ وَمَنْ أَغْنِيَاكَ سَكَتُكَ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْحَارِثِ (٨١).

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾**⁽³⁾ فلا يخلو إما أن يقوله عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه وأنه أعد له كفاءه من العقاب. **﴿سنكتب ما قالوا﴾** في صحائف الحفظلة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما ثبتت المكتوب.

﴿فإن قلت﴾: كيف قال: **﴿لقد سمع الله﴾** ثم قال: **﴿سنكتب﴾** وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ **﴿قلت﴾**: ذكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهم في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ركبه من العظائم وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل لأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول. وروي: أن رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حين سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وحجده ما قاله، فنزلت⁽⁴⁾. ونحوه قولهم: **﴿يد الله مغلولة﴾**⁽⁵⁾. **﴿ونقول﴾** لهم: **﴿نوقوا﴾** وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: **﴿عذاب الحريق﴾** كما أنقمت المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحسن ونق. وقال أبو سفيان لحمزة

(3) سورة البقرة، الآية: 245.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 77.

(5) سورة المائدة، الآية: 64.

(6) ابن هشام في سيرته: 2/93.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (1403)، ومسلم بنحوه في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (2293).

(2) سورة الحديد، الآية: 7.

الحنيف، وصد من أراد الإيمان وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من عجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فحاص ومن بني قريظة والنضير: ﴿فإن نلك﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿من عزم الأمور﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني: إن نلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَرُوا بِهِ نَمًّا قَلِيلًا قَلِيلًا مِمَّا بَشَرْتُمْ ﴿٧٧﴾

﴿وإذ أخذ الله﴾ وانكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لتبيننه﴾ الضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانها كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه. وقيل له: الله لتفعلن ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ فنبذوا الميثاق، وتأكده عليهم يعني: لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه.

والنبد وراء الظهر: مثل في الطرح وترك الاعتماد، ونقيضه: جعله نصب عينيه واللقاء بين عينيه، وكفى به ليلياً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتُموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة؛ وتطبيب لنفوسهم، استجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام نبي، أو لتقية مما لا دليل عليه، ولا إمارة، أو لخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله الجم بلجام من نار»⁽⁴⁾. وعن طاووس أنه قال لو هب: إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك. وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه، ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا⁽⁵⁾. وقرئ: ليبيننه ولا يكتُمونه بالياء لأنهم غيب، وبالتالي على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن﴾⁽⁶⁾.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُمُونَ بِمَا آتَا وَرَجِبُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَنَّارٍ مِنَ الْعَدَابِ أَلَيْسَ أَلَيْسَ ﴿٧٨﴾

== رقم: (3658)، والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في كتمان العلم الحديث رقم: (2649)، وابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه الحديث رقم: (261)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 1/102، وابن حبان في كتاب: العلم. الحديث رقم: (96)، وأخرجه أبو يعلى، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، الحديث رقم: (264).

(5) سند الفردوس - الثعالبي.

(6) سورة الإسراء، الآية: 4.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ رَزَقَ عَنِ الْكَاثِرِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَذَاقَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٧٩﴾

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور.

فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار!⁽¹⁾ قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم⁽²⁾، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكملها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل نك فبعض الأجور.

الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. ﴿فقد فاز﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاض به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»⁽³⁾. وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يلبس به على المستام ويغز حتى يشتريه ثم يتبين له فساد وراءته، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع، بلاغا خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فيكرهها وتشتمنر منها نفسه.

﴿تُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وَأَتَى إِلَى النَّاسِ مَا يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ⁽³⁾. وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يلبس به على المستام ويغز حتى يشتريه ثم يتبين له فساد وراءته، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع، بلاغا خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فيكرهها وتشتمنر منها نفسه.

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات.

وما يسمعون من أهل الكتاب: المطاعن في الدين

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (26) الحديث رقم: (2460).

(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث =

وباهر حكمته ﴿الاولى الالباب﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار املاً عينيك من زينة هذه الكواكب، واجلها في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها، مندبراً بحكمة مديبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رايت من رسول الله ﷺ. فبكت وأطالت، ثم قالت: كل امره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي، ثم قال: «يا عائشة هل لك أن تأتني لي الليلة في عبادة ربي». فقلت: يا رسول الله إنني لأحب قربك وأحب هواك، قد أدنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرا من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقيقه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رايت دموعه قد بلت الأرض، فاتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرأه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا اكون عبداً شكوراً» ثم قال: «ومالي لا ابكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»⁽⁴⁾. وروي: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها»⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: «إن في خلق السموات والأرض»⁽⁶⁾ وحكي: أن الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبدها فتى من فتياتهم فلم تظله. فقالت له أمه: لعل فرطاً فرطت منك في مذك. فقال: ما أنكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعل، قالت: فما أتيت إلا من ذاك.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَرُغُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ يَتَعَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحَكَ قَوْنًا عَذَابِ النَّارِ ﴿١٤١﴾.

﴿الذين يذكرون الله﴾ نكراً داتباً، على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذکر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة، أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾. فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي ﷺ: «من أحب

﴿لا تحسبن﴾ خطاب لرسول الله ﷺ وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾، والثاني بمفازة، وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ: لا تحسبن فلا تحسبنهم بضم الباء على خطاب المؤمنين، ولا يحسبن فلا يحسبنهم بالياء وفتح الباء فيهما على أن الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني على أن الفعل للذين يفرحون والمفعول الأول محذوف على لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن انفسهم الذين يفرحون فائزين، فلا يحسبنهم تأكيد ومعنى ﴿بما أتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى: ﴿إنه كان وعده مائياً﴾⁽¹⁾، ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾⁽²⁾ ويدل عليه قراءة أبي: يفرحون بما فعلوا. وقرئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمداً إليه وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم⁽³⁾، أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب. ومعنى: يفرحون بما أتوا، بما أتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا: أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمداً إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومناقضتهم ووصلهم بنك إلى إغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب يحب أن يحمده الناس، ويشنوا عليه بالديانة والزهد، وبما ليس فيه.

وَلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٢﴾.

﴿وهو ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير فهو يقدر على عقابهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٤٣﴾.

﴿آيات﴾ دلالة واضحة على الصانع وعظيم قدرته

(4) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب: التفسير، باب: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الحديث رقم: (4569)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه الحديث رقم: (1785).

(6) أخرجه ابن أبي شيبة 302/10، كتاب: الدعاء، باب: في ثواب نكر الله.

(1) سورة مريم، الآية: 61.

(2) سورة مريم، الآية: 27.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿لا تحسبن﴾ الذين يفرحون بما أتوا، الحديث رقم: (4568)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وإحكامهم الحديث رقم: (620).

(4) ابن سريويه في تفسيره.

أقوم»⁽⁶⁾ ويجوز أن يكون باطلاً حالاً من هذا. وسبحانك اعتراضاً للتنزيه من العبث وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ (١٧١).

﴿فقد أخْرَجْتَهُ﴾ فقد أبلغتني في إخراجته، وهو نظير قوله: ﴿فقد فاز﴾⁽⁷⁾ ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الضمان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق. ﴿وما للظالمين﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاقة ولا غيرها. تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن نكركه، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد وأن يقال: سمعت كلام فلان أو قوله.

رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا صِغَمًا مَّوَدَّآ بِبَادِي الْإِيمَانِ أَن آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْرِبْنَا دُونَنَا وَكَمَرْنَا عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٧٢).

فإن قلت: فاي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: نكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي لأن لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام، ونلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء الشائنة أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض الفوازل أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك. فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته. ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، ونديه له وإليه، ونداه له وإليه، ونحوه هذا للطريق وإليه. ونلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واتعان جميعاً، والمنادي هو الرسول، ادعوا إلى الله وادع إلى سبيل ربك. وعن محمد بن كعب: القرآن. ﴿أن آمنوا﴾ أي: آمنوا، أو بأن آمنوا. ﴿نتوبنا﴾ كباثرتنا. ﴿سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا. ﴿مع الأبرار﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم، والأبرار جمع بر وبار، كبر وأرباب وصاحب وأصحاب.

رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (١٧٣).

﴿على رسلك﴾ على هذه صلة للوعد كما في قولك:

أن يرتع في رياض الجنة فليكثر نكر الله⁽¹⁾. وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء»⁽²⁾.

وهذه حجة للشافعي رحمه الله في اضجاع المريض على جنبه كما في اللحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله أنه يستلقي حتى إذا وجد خفةً قعد. ومحل ﴿على جنوبيهم﴾ نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنه قيل: قياماً وتعوداً ومضطجعين. ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعتها، وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع وكبرياء سلطانه. وعن سفيان الثوري: أنه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه وكان يببول الدم من طول حزنه وفكرته. وعن النبي ﷺ: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً لله اللهم اغفر لي. فنظر الله إليه فغفر»⁽³⁾. وقال النبي ﷺ: «لا عبادة كالتفكير»⁽⁴⁾. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة ويحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحران، ولا استنارت بمثل الفكرة. وروي عن النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى، فإنه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض»⁽⁵⁾. قالوا: وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض. ﴿وما خلقت هذا باطلاً﴾ على إرادة القول، أي: يقولون ذلك، وهو في محل الحال بمعنى يتفكرون قائلين، والمعنى: ما خلقت خلقاً باطلاً بغير حكمة بل خلقت له داعي حكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين أدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك، ولذلك وصل به قوله: ﴿فققنا عذاب النار﴾ لأنه جزء من عصي ولم يطع.

فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق، على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم، كقوله: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي

(3) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 1/264.

(5) نكوه ابن كثير في البداية والنهاية (237/1) ونكوه الزبيدي في إتحاف المتقين (105/2).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك، ألا تراه كيف اتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول، وقوله: أمانة وهو التصديق، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك أو محمولاً على رسلك لأن الرسل محمولون ذلك فإنما عليه ما حمل. وقيل: على السنة رسلك، والموعود هو الثواب. وقيل: النصرة على الأعداء.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد؟ **قُلْتَ:** معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو هو باب من اللجا إلى الله، والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم، والتضرع إليه، واللجا الذي هو سيما العبودية.

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرْتُ أَوْ أُنذِرُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُورِدُوا فِي سُبُلٍ وَمَتَّلَوْا وَفُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٤٥﴾

يقال:

استجاب له واستجاب به فلم يستجبه عند ذلك مجيب **﴿أني لا أضيع﴾** قرىء: بالفتح على حذف الياء، وبالنسر على إرادة القول. وقرىء: لا أضيع بالتشديد. **﴿مز: ذكر وأنثى﴾** بيان لعامل **﴿بعضكم من بعض﴾**، أي: يجمع نوركهم وإناتكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله أو كانه منه لفرط اتصالكم واتحادكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شربة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

روى أن أم سلمة قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء⁽¹⁾ فنزلت. **﴿فأدين هاجروا﴾** تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم. كانه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤوا بما ساءهم المشركون من الخسف. **﴿وآودوا في سبيلي﴾** من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين. **﴿وقاتلوا وقتلوا﴾** وغزوا المشركين واستشهدوا وثرى وقتلوا بالتشديد، وقتلوا وقتلوا على التقديم بالتخفيف والتشديد، وقتلوا وقتلوا على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وقتلوا وقتلوا على بنائهما للفاعل **﴿ثواباً﴾** في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو ثويباً.

﴿من عند الله﴾ لأن قوله: **﴿لا كفرن عنهم﴾** **﴿ولا نخلنهم﴾** في معنى لأثيبنهم. وعنده مثل أي يختص به وبقدرته وفضله لا يشبهه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرتة. وهذا تعليم من الله كيف يدعي وكيف يبتهل إليه ويتضرع. وتكرير ربنا من باب الإبهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة، وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولاً إليه بالعمل بالجهل والغباوة، وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراه، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم. إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٤٦﴾

﴿لا يغرك﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب وبرد العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون. عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروي: أن ناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ **قُلْتَ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن مدره القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكانه قيل: لا يغركم.

والثاني: أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: **﴿ولا تكن من الكافرين﴾**⁽²⁾، **﴿ولا تكونن من المشركين﴾**⁽³⁾، **﴿ولا تطع المكذبين﴾**⁽⁴⁾، وهذا في النهي نظير قوله في الأمر. **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**⁽⁵⁾، **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾**⁽⁶⁾، وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأن التقلب لو غرّه لاغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرىء: لا يغرك بالنون الخفيفة.

مَتَّعَ قَلِيلًا لِّئَلَّا يَرْوِيَ عَنْهُمْ جَهَنَّمَ وَيُنْسَ الْيَهُودَ ﴿١٤٧﴾

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل

(4) سورة القلم، الآية: 8.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 6.

(6) سورة النساء، الآية: 136.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث رقم: (3023).

(2) سورة هود، الآية: 42.

(3) سورة الانعام، الآية: 14.

يؤمن في معنى الجمع. ﴿لا يشترتون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم. ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعده في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾⁽⁴⁾، ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾⁽⁵⁾ ﴿إن الله سريع الحساب﴾ لنفوذ عمله في كل شيء فهو عالم بما يستوجه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لأت قريب بعد نكر الموعود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿اصبروا﴾ على الدين وتكاليفه، ﴿وصابروا﴾ أعداء الله في الجهاد. أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة باب من الصبر نكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشئته وصعوبته. ﴿ورابطوا﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو وعدوكم﴾⁽⁶⁾. وعن النبي ﷺ: «من رباط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا يفتل عن صلاته إلا لحاجة»⁽⁷⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»⁽⁸⁾.

سورة النساء

مدنية وهي مائة وستة وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَرَّ فِيهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَبًّا ﴿١﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا بني آدم، ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم.

وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فليتنظر به يرجع»⁽¹⁾. ﴿وبئس المهاد﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٢٨٧﴾.

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي: وكنا إذا الجبار ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف، والعامل اللام: ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كانه قيل: رزقاً أو عطاءً ﴿من عند الله وما عند الله﴾ من الكثير الدائم. ﴿خير للأبرار﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل، وقرأ مسلمة بن محارب والاعمش: نزلاً بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكن الذين اتقوا بالتشديد.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٨٧﴾.

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل نجران، وأثنى وثلاثين، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى الله واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط وليس على دينه⁽²⁾. فنزلت. وبخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كقوله: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾⁽³⁾ ﴿وما أنزل إليكم﴾ من القرآن، ﴿وما أنزل إليهم﴾ من الكتابين، ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل يؤمن لأن من

(7) أحمد في المسند 440/5، ولفظه «أو ليلة»، ولم يذكر «وقيامه»، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل الحديث رقم: (4915) وأخرجه ابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، الحديث رقم: (4623).

(8) ابن الجوزي في الموضوعات - ابن مردويه - الواحد في تفسيره. [زيلي 1/268].

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة الحديث رقم: (7126).

(2) الدارمي في أسباب النزول ص 81.

(3) سورة النساء، الآية: 72.

(4) سورة القصص، الآية: 54.

(5) سورة الحديد، الآية: 28.

(6) سورة الأنفال، الآية: 60.